صورة الكافر في امتثال القرآن

دراسة بلاغية

دكتور
أحمد على عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ، وأصلى وأسلم على من أرسله ربه شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا .

وبعد ...

فإن من أهداف القرآن الكريم الرئيسة هداية الناس للخير وترغيبهم فيه، وكشف الشر وتنفيرهم منه ، وذلك من خلال حجة مقنعة ، أو براهين قاطعة ، أو موعظة مؤثرة ، أو شبهة مفندة ، أو صورة ناطقة ، أو حكمة بالغة .

وأمثال القرآن الكريم من أهم وسائل القرآن فى ذلك :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : ٢١]

ومن عجيب القرآن الكريم أنه نوع فى ضرب الأمثال تنويعًا جعلها متسقة لتنوع الأفهام واختلاف الأحوال حتى يجد كل إنسان فى أمثال القرآن أنها له وحده ، توقظه إذا غفل ، وتنشطه إذا كسل ، وتذيب رهج الشك إن تراكم عليه ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم : ٥٨]

وليس عجبًا أن يصرف كثير من علماء الأمة جهودهم لدراسة أمثال القرآن ، جمعًا وشرحًا ، وتحليلاً ، وتقسيمًا سواء أكان ذلك فى الماضى البعيد أم القريب أم الحاضر ، فبعضهم كالمفسرين عالجوا الأمثال القرآنية فى إطار معالجتهم لإعجاز القرآن وبلاغته ، وآخرون أفردوها بكتب خاصة وشرح ذاتى لخصوصية فى الأمثال نفسها .

وممن أنرد الأمثال بالتأليف قديمًا الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريرى ٢٩٨ هـ فى كتابه (أمثال القرآن) ويبدو أن الكتاب فقد .

والحكيم الترمذى (ت ٣١٨ هـ) فى كتابه " الأمثال من الكتاب والسنة " ، وأبو عبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفه المعروف بنفطويه (ت ٣٢٣ هـ) فى كتابه " أمثال القرآن " وغيرهم .

والإمام ابن القيم ، أبو عبد الله بن بكر ابن أيوب (ت ٧٥١ هـ) فى كتابه (تشبيهات القرآن وأمثاله)

والزركشى بدر الدين محمد بن عبدالله (ت ٧٩٤ هـ) وجعلها فصلاً من كتابه (البرهان)

وعلى نهجه نسخ جلال الدين السيوطى (٩١١ هـ) فصلاً من كتابه " الإتقان " .

وفى العصر الحديث تجد " محاضرات فى أمثال القرآن " لأمين الخولى

و " الأمثال فى القرآن " لمحمود بن الشريف ، " ومن أمثال القرآن " للشيخ أحمد كامل الخضرى ، و" الصورة الفنية فى المثل القرآنى " لمحمد حسين على الصغير [1]

وقيمة الأمثال أهم من أن يتفرد بها عصر، أو تنحصر فى مصر. وهذا شأن القرآن عامة.

وأمثال القرآن عرضت للكافر ، ورسمت كل شئ فيه ، طريقة تفكيره، جدله ، نفسيته ، شبهاته ، العوائق التى تحول بينه وبين الإيمان ، وهى إذ تفعل فالغرض هدايته وتنفيره مما هو فيه ، لتساعده على تدارك حاله .

لهذا كله اخترت " صورة الكافر فى أمثال القرآن دراسة بلاغية " واجتهدت أن أقصر الأمثال على ما كان منها مبنيًا على التمثيل ، سواء ذكر لفظ المثل أم أغنى التمثيل عن ذكره ، وما جاء منه فى ثوب تشبيه التمثيل أو الاستعارة التمثيلية .

---

[1] ينظر : الصورة الفنية د. محمد حسين على الصغير ، دار الرشيد للنشر – ١٩٨١ ص ٤٠٣ - ٤٠٩

واخترت الأمثال التى تتعلق بالكافر ذاتًا أو جماعة ومما يتصل بذاته وهو عمله ، وقصدت إلى الأمثال التى اتفقت كلمة العلماء عليها فى أنها فى شأن الكافر وحده .

واجتهدت فى أن يكون ما اخترت شاملاً – بطريقة مجملة – لما تركت لضيق المساحة وغير ذلك .

واجتهدت كذلك فى إبراز دور التعبير فى التصوير من خلال اللفظة المفردة والتركيب فى إطار المثل ولم أشأ أن أعزل اللفظ أو الأسلوب عن سياق المثل فيشوه .

واقتضت طبيعة البحث أن يخرج فى تمهيد وثلاثة مباحث مبدوءً بمقدمة مذيلاً بخاتمة على النحو التالى :

المقدمة : بينت فيها أهمية الموضوع ، وسبب اختيارى له ، وطريقتى فيه .

وتمهيد : تناولت فيه تعريف المثل لغة واصطلاحًا ناقلاً أقوال العلماء ومرجحًا ما ارتضيت ، ثم أهمية أمثال القرآن ، ووظيفتها ، وغاياتها .

ثم المبحث الأول : ووسمته بـ " صورة الكافر منفردًا "

ثم المبحث الثانى : **وعنونت له بـ " الموازنة بين صورة الكافرين وصورة المؤمنين "**

ثم المبحث الثالث : وخصصته بـ " أعمال الكافرين "

وذيلت البحث بخاتمة ، لخصت فيها ما شرحه البحث ، وأبرزت النتائج التى لاحظتها ،ثم قائمة بالمصادر والمراجع التى اعتمدت عليها .

فإن كنت قد وفقت فهذا ما أرجوه ، وإن كانت الأخرى – وأرجو ألا تكون – فحسبى أنى اجتهدت .

د / أحمد على عبدالعزيز يوسف

تمهيد

تعريف المثل:

جاء فى لسان العرب : مَثَـل : مِثْـل : كلمة تسوية ، يقال هذا مثله ، ومثله كما يقال شِبْهه وشبهه بمعنى. والمثل الشبه ، يقال : مِثْـل ، ومَثَـل ، وشِبْه وشبَه بمعنى واحد . والمثل: الحديث نفسه ، وقوله عـز وجـل : " ولله المثل الأعلى ": جاء فى التفسير أنه قول لا إله إلا الله والمثـل الـشئ الـذى يضرب لشئ مثلًا فيجعله مثله . قال الجوهرى : ومثل الشئ أيضًا صفتـه.

ويقال تمثل فلان ضرب مثلًا ، وتمثل بالشئ ضربه مثلًا ، وقد يكون المثل بمعنى العبرة ، ومنه قوله - ﷻ - :

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦] ...

معنى قوله : " ومثلاً " أى : عبرة يعتبر بها المتأخرون. ويكون المثل بمعنى الآية ، قال الله - ﷻ - : " فى صفة عيسى - عليه السلام - ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف : ٥٩] أى : آية تدل على نبوته .

والمثال المقدار وهو من الشبه ، والمثل ما جعل مثلاً أى مقدارًا لغيـره يحذى عليه . " [١]

والخليل ابن أحمد يعرف المثل بأنه الشئ يضرب للشئ فيجعله مثله ، نحو: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة : ٥] [٢]

---

[١] ينظر : لسان العرب . جمال الدين ابن منظور مادة : " مثل "١١ / ٦١٠ وما بعـدها طبعة دار الفكر . ط الثالثة ١٩٩٤ م

[٢] كتاب العين للخليل بن أحمد ، تحقيق د . مهدى مخزومى ، د . إبراهيم الـسامرائى ٢٢٨/٨ ط وزارة الثقافة والإعلام العراق .

وكلمة مثل من الأضداد – كما أشار لذلك ابن دريد – قال : مثل بالفتح من مثل يمثل مثولاً إذا زال عن موضعه فهو عندهم من الأضداد ، قال الشاعر :

فمنه بدو تارة ومثول " [٣]

قال الراغب : " إن المثل عبارة عن قول شئ فى شئ يشبه قولاً فى شئ آخر، بينهما مشابهة ؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوره ، والمثل عنده أعم من الألفاظ ، ويأتى على وجهين :

أحدهما : بمعنى المِثْل نحو شَبَه وشِبْه . **والثانى** : عبارة عن المشابهة لغيره فى معنى المعانى ، أى معنى كان " [٤]

وصاحب الفوائد يعلل التسمية بفهم ثاقب فيقول : " المثل جمعه أمثال وسمى المثل مثلاً لأنه ماثل بخاطر الإنسان أى شاخص يتأسى به ويتعظ ويخشى ويرجو والشاخص المنتصب وهو من قولهم ظل ماثل أى شاخص."[٥]

هل ثمة فرق بين المَثَل والمِثْل ؟

ذهب كثير من العلماء كالزمخشرى والألوسى ورشيد رضا وغيرهم إلى عدم التفرقة ، بل قال الآلوسى " والتفرقة لا أرتضيها " . [١]

وفرق غيرهم فالرازى جعل المثل – بالفتح – للمساواة فى تمام الماهية ، والمثل – بكسر النون – للمساواة فى بعض الأمور الخارجة عن الماهية .[٢]

---

[٣] ينظر : جمهرة اللغة لابن دريد ، الطبعة الأولى دائرة المعارف العثمانية ٢ / ٥٠ .
[٤] مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهانى مادة مثل ، مكتبة الأنجلو ١٩٧٠ : ٤٦٢/١
[٥] الفوائد المشوق إلى علوم القرآن المنسوب خطأ لابن القيم وهو مقدمة ابن النقيب فى التفسير ص ٦٧ .
[١] ينظر : روح المعانى للآلوسى ١٦٣/١ ، دار الحديث ، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م ، وتفسير المنار ١/ ١٦٧ .
[٢] السابق نفسه ، والصفحة نفسها

ونقل صاحب البرهان عن ابن العربى جعل " المثل " – بكسر النون – للشبه فى المحسوسات و" المثل " بفتحتين عبارة عن شبه المعانى المعقولة ، فالإنسان مخالف للأسد فى صورته مشبه له فى جراءته وحدته ... [٣] .

ويرى الطاهر بن عاشور أن " المثل " (بفتحتين) اختص بإطلاقه على الحالة الغريبة الشأن لأنها بحيث تمثل للناس وتوضح وتشبه . [٤]

ونظرة فيما سبق نلحظ أن الكلمة تستعمل فى :

١- الحال والصفة العجيبة .

٢- المساواة فى المقدار والأحكام .

٣- تشبيه هيئة منتزعة من أشياء متحدة بهيئة أخرى مركبة

٤- معنى العبرة والاتعاظ

٥- معنى الآية

٦- النموذج الماثل بالخاطر

والذى يسير البحث عليه ويأخذ به هو ما يكون تشبيه هيئة بهيئة سواء أكان على طريق تشبيه التمثيل أو عن طريق الاستعارة التمثيلية . وهو ما عبر عنه الخليل : " الشئ يضرب للشئ فيجعل مثله ، ويقترب منه الراغب وغيره ... ، أو أن يصدر المعنى بـ " مثل " .

---

[٣] ينظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١ / ٤٩٠ . تح : محمد أوالفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧م .

[٤] التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، ٣٠٣/١ ، دار سحنون – طبعة خاصة لمجمع [أبوظبى] الثقافى .

ضـــرب المثـــل :

الضرب بالمعنى اللغوى العام معروف وهو إيقاع شئ على شئ [1] ، ونقل عن الفيروزآبادى أن الضرب والمثل مترادفان ، وتمثل بالشئ ضـــربه مثلاً .

وذهب بعضهم إلى أن ضرب المثل وصفه وبيانه للنـــاس ، وذهـــب آخرون إلى أن ضرب الأمثال يعنى ترسيخها وتثبيتها ووضعها معتمدة متينة الأساس ، كما نص على ذلك الزمخشرى ، والألوسى . [2]

وتأملت أمثال القرآن فوجدتها تارةً تعرض مصدرة بمثـــل ، وثانيـــة بضرب ومشتقاتها ، وثالثة بدونها ، ووجدت أن ضرب ومشتقاتها تأتى مـــع المثل فى المواقف العنيفة ، أو الشديدة ، أو حيث يراد لها مزيد من القوة .

تـــأثير المثـــل :

للأمثال أهمية كبيرة فى شرح الفكـــرة ، والإقنـــاع بالحجـــة ، وإثـــارة العواطف ، وتقريب البعيد ، وتوضيح الغامض ، يقول عبد القاهر الجرجانى: " اعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعـــانى ، أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفًا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا .

فإذا كان ذمًا كان مسه أوجع وميسمه ألذع ووقعه أشد وحده أحـــد ، وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانـــه أبهـــر ، وإن كـــان افتخارًا كان شأوه أمد ، وشرفه أجد ولسانه ألد وإن كان اعتذارًا كان إلـــى

---

[1] لسان العرب ، جمال الدين بن منظور - مادة " مثل "

[2] ينظر : الصورة الفنية فى المثل القرآنى ، د / محمد حسين على الصغير ص ٧٣-٧٦ ، وينظر : الكشاف ٥٥٣/٢ ، وروح المعانى : ٢٠٠٦/١ .

القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفل وفى عقد العقود أنفث ، وحسن الرجوع أبعث ، وإن كان وعظًا كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر وأبلغ فى التنبيه والزجر ، وأجدر أن يجلى الغياية ، ويبصر الغاية ، ويبرى العليل ، ويشفى الغليل . " [٣]

وقال إبراهيم النظام : " يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة . " [٤]

الأمثال القرآنية :

الأمثال القرآنية جزء من البيان الإلهى تصحح العقيدة ، وتقيم الحجة ، وتدحض الشبهة ، وترغب فى الخير وتغرى به ، وتحذر من الشرر وتزجر عليه ، وتشرح الغيب وتقربه ، وتحيل المنتظر إلى منظور وتكشفه ، كما أنها ترسم طريق السعادة ، وأسباب الهداية .

يقول الزركشى : " وفى ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى ، إذ الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى ، والشاهد بالغائب ، فالمرغب فى الإيمان – مثلاً – إذا مثل له بالنور تأكد فى قلبه المقصود ، والمزهد فى الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه فى نفسه ، وفيه تبكيت الخصم ، وقد أكثر الله تعالى فى القرآن ، وفى سائر كتبه من الأمثال . " [١]

---

[٣] أسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجانى ، مكتبة القاهرة ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م] ، ١٠١ – ١٠٢ .

[٤] مجمع الأمثال ، للميدانى ، ت ح : محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار الجبل - بيروت . ط ثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ٦/١ .

[١] البرهان فى علوم القرآن : ٤٨٨/١

بل لقد أشاد القرآن نفسه بأمثال القرآن ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤]

وغايات الأمثال في القرآن يكشف عنها القرآن :

١- التذكر ، قال تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٢٥]

٢- التفكر ، قال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : ٢١]

٣- هداية للمؤمنين ويضل عنها الفاسقين ، قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦]

٤- قطع عذر الكافرين ، قال تعالى:

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]

٥ - الترغيب والترهيب ، قال تعالى : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ

فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧]

٦- يعقلها العالمون ويتأثرون بها ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣]

صورة الكافر فى أمثال القرآن

يرسم القرآن الكريم صورة للكافر منفردًا ، أو للكافرين مجتمعين ، أو لأعمال الكافرين وما تؤول إليه .

القرآن إذ يتحدث عن الكافر وعمله فهو فى الحقيقة يرسم صورة منفرة للكفر وعواقبه ولكن لا من خلال تنظير بل من خلال نموذج إنسانى يمكن أن تراه عيوننا ، وتسمع كلامه آذننا ويتحرك بين أيدينا .

والفرق كبير بين نماذج واقعة ، وبين تنظير ذهنى متخيل . الأول واقع فشأنه التأثير والثانى عالق بصورة متخيلة فى الذهن فتأثيره ضعيف .

وتأملت عرض القرآن لصورة الكافر فوجدته قد أبرز كل شئ فيه : تفكيره ، اهتماماته غاياته ، معيشته ، حججه ، شبهه .....

يعرض القرآن ذلك من خلال :

١- إما رسم صورة للكافر منفردًا .

٢- وإما أن يضعه فى قرن مع المؤمن من خلال موازنة بين الاثنين.

٣- وإما من خلال عمله .

أولاً : صورة الكافر منفردا :

قال تعالى :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١]

يصور هذا المثل موقف الكافر من الدعوة ومن الداعى - ﷺ - والمثل يأتى متممًا لمعنى الآية قبلها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠]

لما ذكر تعالى أن هؤلاء الكفار إذا أمروا باتباع ما أنزل الله أعرضوا عن ذلك ، ورجعوا إلى ما ألفوه من اتباع الباطل الذى نشأوا عليه ، ووجدوا آباءهم ، ولم يتدبروا ما يقال لهم ، وصموا عن سماع الحق ، وخرسوا عن النطق به ، وعموا عن إبصارهم النور الساطع النبوى ذكر هذا التشبيه العجيب فى هذه الآية منبهًا على حالة الكافر فى تقليده أباه . ومحقرًا نفسه إذ صار هو فى رتبة البهيمة أو فى رتبة داعيها " [1] . فالتشبيه بهذا المعنى جاء ليحطم حاجزًا من حواجز الشرك والكفر ألا وهو حاجز التقليد ، فالقوم لا يعطون فرصة لعقولهم لتفقه ، ولا لآذانهم لتسمع ، ولا لمشاعرهم لتتأثر ، وإنما هم مقلدون ، ولآبائهم متبعون ، وعن الحق معرضون ، أفلا يتدبرون ؟!

يقول صاحب المنار : " [مثل الذين كفروا] أى صفتهم فى تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم كمثل الذى لا يسمع إلا دعاء ونداء ، أى كصفة الراعى

---

[1] البحر المحيط ، لأبى حيان ، دار الكتب العلمية . ط أولى ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، ٦٥٦/١ .

للبهائم السائمة ينعق ويصيح بها فى سوقها إلى المرعى ودعوتها إلى المـــاء وحجزها عن الحمى ، فتجيب دعوته ، وتنزجر بزجره ، بما ألفت من نعاقـــه بالتكرار .

شبه حالهم بحال الغنم مع الراعى يدعوها فتقبل ، ويزجرها فتنزجر ، وهى لا تعقل مما تقول شيئًا ، ولا تفهم له معنى ، وإنما تسمع أصواتًا تقبـــل لبعضها ، وتدبر للآخر بالتعويد ، ولا تعقل سببًا للإقبال ولا للإدبار "[٢]

وقيل معناه – وهو الوجه الثانى – :ومثلهم فى دعائهم الأصنام كمثـــل الناعق بما لا يسمع .

ثم عاد واستبعد هذا الوجه فقال : إلا أن قوله " إلا دعـــاء ونـــداء " لا يساعد ؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئًا .

فعلى الأول : يكون الناعق الذى هو الراعى بمنزل الداعى إلى الحق وهو الرسول – عليه الصلاة والسلام – وسائر الدعاة إلى الحق وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها .

ووجه التشبيه : أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد ، وهـــؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول وألفاظه وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها ، ولا جرم حصل وجه التشبيه "[١]

وعلى الثانى : أنه شبه الكفار بالناعق والأصنام بالبهائم التى لا تفهم ، فالمحذوف فى الأول الداعى ، وفى الثانى المدعو .

---

[٢] المنار ، رشيد رضا ، دار المنار ط . ثانية ، ١٣٦٦هـ -١٩٤٧م ، ٢/٩٣ – ٩٤ .
[١] مفاتيح الغيب : للإمام الرازى ، دار الفكر ، ط . أولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م . ٥/٨ .

واستبعد الزمخشرى والرازى الوجه الثانى بحجة أن قوله : " إلا دعاء ونداء " لا يساعد على ذلك ؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئًا . [٢]

وأجيب عنه بثلاثة أوجه : أن " إلا " زائدة ، والمعنى مما لا يسمع دعاء ونداء.

قالوا : وقد ذكر ذلك الأصمعى فى قول الشاعر :

حراجيج ما تنفك إلا مناخة

أى ما تنفك مناخة .وهذا جواب فاسد ؛ فإن " إلا " لا تزاد فى الكلام .

الجواب الثانى : أن التشبيه وقع فى مطلق الدعاء لا فى خصوصية المدعو .

الجواب الثالث : أن المعنى : أن مثل هؤلاء فى دعائهم آلهتهم التى لا تفقه دعاءهم كمثل الناعق بغنمه بنعيقه بشئ ، غير أنه هو فى دعاء ونداء ، وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء " [٣]

ويمكن أن يجعل هذا من قبيل التشبيه المركب ، ويلزم كون مجموع " لا يسمع إلا دعاء ونداء " كناية عن عدم الفهم والاستجابة . قاله الألوسى . [٤]

ووجه ثالث فى شرح المثل نسبه الرازى إلى ابن زيد قال : " مثل الذين كفروا فى دعائهم آلهتهم كمثل الناعق فى دعائه عند الجبل ، فإنه لا يسمع إلا صدى صوته ، فإذا قال : يا زيد يسمع من الصدى : يا زيد . فكذلك هؤلاء الكفار إذا دعوا هذه الأوثان لا يسمعون إلا ما تلفظوا به من الدعاء والنداء . [١]

---

[٢] الكشاف : ٣٢٨/١ ، ومفاتح الغيب : ٨/٥

[٣] إعلام الموقعين : للإمام ابن القيم ، تح : عبد الرحمن الوكيل ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤٠٩هـ : ٣٧/١ ، ٣٨

[٤] روح المعانى : ٦٠٢/١ ، ٦٠٣

[١] مفاتيح الغيب ٩/٥

ويمكن أن يجرى المثل على ظاهره من غير تقدير محذوف ، والمعنى أن الكافرين فى قلة عقولهم عندما يعبدون الأصنام كمثل الراعى إذا تكلم مع الأنعام فإنه يحكم عليه بقلة عقله .

أو مثل الذين كفروا فى تقليدهم آبائهم كمثل الراعى مع البهائم ، فكما أن الكلام مع البهائم عبث عديم الفائدة فكذا التقليد عبث عديم الفائدة . [٢]

وسياق المثل يرشح ما ذهب إليه صاحب المنار ، من أنه شبه حالهم مع الداعى بحال الغنم مع الراعى ، و " أن الكفرة لانهماكهم فى التقليد وإخلادهم إلى ما هم عليه من الضلالة لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم ، ولا يتأملون فيما يقرر معهم ، فهم فى ذلك كالبهائم التى ينعق عليها وهى لا تسمع إلا جرس النغمة ودوى الصوت . " [٣]

ومن بديع النظم الكريم تصدير المثل بكلمة " مثل " ليعلن من البداية أن الصورة ممتدة ، والهيئة متصلة ، فهو تمثيل لا مجرد تشبيه جزئى " مفرد" ، والمثل من معانيه : الصفة العجيبة

وقال : " مثل الذين كفروا " ولم يقل مثلهم فعدل عن الضمير إلى اسم الموصول " لذمهم بما فى حيز الصلة ، وللإشعار بعلة ما أثبت لهم من الحكم، والتقدير : مثل ذلك القائل وحاله الحقيقة لغرابتها بأن تسمى مثلاً . " [٤]

ثم لتأكيد المشابهة فى الصفة أعاد " مثل " ثانية فقال : " كمثل " أى صفتهم كصفة الذى ينعق ، والكاف للتشبيه . شبه الصفة بالصفة ، أى صفتهم كصفة الذى ينعق ، ومن ذهب إلى أن الكاف زائدة فقوله ليس بشئ ؛ لأن الصفة ليست عين الصفة ، فلابد من الكاف التى تعطى التشبيه . " [٥]

---

[٢] السابق ملخصًا

[٣] روح المعانى ٦٠٢/١ ، ٦٠٣

[٤] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للإمام أبى السعود ، دار إحياء التراث العربى : ١٩٠/١ .

[٥] البحر المحيط : ٦٥٨/١

والتعبير بالمضارع " ينعق " ، " يسمع " يعطى التجدد ، ويوحى بجهد الداعى معهم فهى ليست مرة ، وإنما تكررت أكثر من مرة ويشى بذلك – أيضًا – اختيار المادة : " نعق " فأصل النعيق التتابع فى التصويت على البهائم للزجر . [٦]

" والدعاء والنداء قيل : بمعنى واحد فهو تأكيد ، ولا يصح ، وقيل : الدعاء للقريب والنداء للبعيد . وقيل : الدعاء ما يسمع ، والنداء قد لا يسمع ، ولا يصح .

والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات التى تفهمها الغنم ، فالدعاء ما يخاطب به الغنم من الأصوات الدالة على الزجر ، وهى أسماء الأصوات ، والنداء رفع الصوت عليها لتجتمع إلى رعاتها ، ولا يجوز أن يكون بمعنى واحد مع وجود العطف " [١] .

وزيادة فى الذم أردف " صم بكم عمى فهم لا يعقلون " ، " وهذه منتهى الزراية بمن يعطل تفكيره ، ويغلق منافذ المعرفة والهداية ، ويتلقى فى أمر العقيدة والشريعة من غير الجهة التى ينبغى أن يتلقى منها أمر العقيدة والشريعة . " [٢]

فإذا لم يستجيبوا لداعى الهدى لينقذهم من الضلالة والردى فهم بمثابة من فقد حواسه فأصبح لا يسمع ، ولا ينطق ، ولا يبصر .

ويمكن أن تكون هذه الأوصاف الذميمة " صم بكم عمى " يمكن أن تكون من قبيل الحقيقة إذا كان الموصوف بها الأصنام .

---

[٦] روح المعانى : ٦٠٣/١

[١] التحرير والتنوير : للطاهر بن عاشور ، دار سحنون ١٩٩٧م : ١١٣/٢ .

[٢] فى ظلال القرآن : سيد قطب ، دار الشروق ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م : ١٥٦/١

أما إذا كانت ذمًا للمشركين فهى من قبيل التشبيه البليغ أى هم كالصم...

ولما كان السباق متعلقًا بموقفهم من الداعي ، وبروز الناحية الصوتية فى المثل بدأ بما يتعلق بالأذن أولاً ، فقال " صم " ثم بما يبرز الاستجابة لو لم يتعطل " بكم " ثم عدم بصرهم الآيات " عمى " .

" وقوله [فهم لا يعقلون] وارد مورد النتيجة بعد البرهان ، بجانب كونه توبيخًا لهم لأنهم بفقدهم أهم طرق الإدراك ، وهما السمع والبصر ، وأهم وسيلة للثقافة وهى استطلاع الحقائق من طريق المحاورة والتكلم ، صاروا بعد كل ذلك بمنزلة من فقد عقله الاكتسابى فأصبح لا يفقه شيئًا ؛ لأن العقل الذى يكتسب به الإنسان المعارف والحقائق يستعين به استعانة كبرى بهذه الحواس الثلاث . " [٣]

وترتيبًا أمثال القرآن ملمحًا لقبيل من الكافرين ذلكم الذى عرف الحق ثم أنكر ، أقر بالتوحيد . ثم انسلخ منه ، فسقط من ساحق إلى هوة سحيقة يقول الله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف ١٧٥ : ١٧٧]

---

[٣] التفسير الوسيط : سيد طنطاوى

يبرز هذا المثل نموذجًا من الكافرين، وهو الذى عرف ثم أنكر، وأبصر الحق، ثم عمى .

واختلف فى تعين الذى أوتى الآيات : قيل : هو بلعام بن باعوراء . وقيل : أمية بن أبى الصلت . وقيل : أبو عامر بن صيفى . [1]

ورجح القرطبى أن يكون المعنى به بلعام بن باعوراء وقال بأنه أشهر وعليه الأكثر . ويرجحه سياق الآيات حيث تتحدث عن بنى إسرائيل بل جزم البقاعى بذلك . [2]

وفنّد ذلك الطاهر بن عاشور ، وقال : " التحقيق أن بلعام هذا كان من صالحى أهل مدين عرافيهم فى زمن مرور بنى إسرائيل على أرض (مؤاب) ولكنه لم يتغير عن حال الصلاح وذلك مذكور فى سفر العدد من التوراة فى الإصحاحات ٢٢ – ٢٣ – ٢٤ . فلا ينبغى الالتفات إليه ." [3]

ورجح أن يكون فى أمية بن أبى الصلت من خلال مطابقة حال المثل على حال أمية كما سيتضح بعد . [4]

وأيًا كان فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والموعظة واضحة جلية سواء تعين اسمه أم لم يتعين .

سياق المثل :

يأتى المثل متسقًا مع ما قبله ، وما بعده موظفًا لخدمة المعنى ، ولتحقيق الهدف :

---

(1) الجامع لأحكام القرآن : أبو عبدالله محمد القرطبى ، مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت : ٣٢٠/٧ ، والبحر المحيط : ٤٢١/٤ .
(2) ينظر القرطبى : ٣٢١/٧ ، والبقاعى : ١٥٠/٣ .
(3) التحرير والتنوير ١٧٥/٩ .
(4) السابق : ١٧٧/٩ .

(١) ذكر من نبأ بنى إسرائيل أنهم بعد ما رأوا الآيات انسلخوا عن الحق ورجعوا إلى التمرد مرة أخرى حتى انتق الله عليهم الجبل ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ... ﴾[الأعراف :١٧١]

(٢) قد أخذ الله – تعالى – العهد على بنى ادم أن يؤمنوا به ويعبدوه ، ولكن بعضهم يكفر فينتقض عهده . ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ..... ﴾ [الأعراف : ١٧٢]

(٣) أبراز المعانى المتعلقة بالهدى والضلال وسببية العبد ومشيئة الرب ، وذلك عقب المثل .

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٨]

غاية المثل :

غاية المثل أشار إليها القرآن الكريم قبل المثل وفى تذييل المثل ، فقبل قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٤] " أى وليكون حالهم حال من يرجى رجوعه من الضلال إلى ما تدعو إليه الهداة من الكمال ... " [١]

---

[١] نظم الدرر : للإمام البقاعى ، تح : عبدالرازق غالب ، دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٧١م : ١٥٠/٣

وفى تذييل المثل " فاقصص القصص لعلهم يتفكرون " أى فاسرد أخبار القرون الماضية كخبر بلعام أو من فسر به المنسلخ إذ هو من القصص الذى لا يعلمه إلا من درس الكتب ... لعلهم يتفكرون فيما جرى على المكذبين فيكون ذلك عبرة لهم ورادعًا عن التكذيب . " [٢]

والتعبير بـ " اتل " مع القصص " يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصة بقرينة قوله " ذلك مثل القوم " ، ويحصل من ذلك – أيضًا – تعليم مثل قوله : " واتل عليهم نبأ نوح – واتل عليهم نبأ إبراهيم – نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ... "

ومعنى التلاوة : " القراءة وإلقاء الكلام الذى يعاد ويكرر للاعتبار به."[٣]

وهو مناسب لهم إذ كانوا أميين تغلب الأمية عليهم ، ومكمن الإعجاز فى أن يكون الرسول – ﷺ – أميًا ، وهم كذلك أميون ؛ ليتحمل الرسول النبى الأمى أبلغ كتاب بلسان عربى ولتتحمل الأمة الأمية قيادة العالم إلى الحضارة والمدنية .

فبعد أن كانوا بادين فى الأعراب يرعون البقر والغنم يمسكون بلواء الحضارة فيقودون الأمم[١]

﴿ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾

---

[٢] البحر المحيط : ٤٢٤/٤

[٣] المنار : ٤٠٥/٩ .

[١] وعقد البقاعى مقارنة بين افتتاح القصة هنا وافتتاح القصة فى قصة أصحاب القرية وأبان عن خصوصية الافتتاح هنا فقال : وقال " اتل " دون " واسألهم عن " [الأعراف : ١٦٤] نحو ما ممضى فى القرية ؛ لأن هذا الخبر مما يحبون ذكره ؛ لأن سلخه من الآيات كان لأجلهم ، فهو شرف لهم فلو سألهم عنه لبادروا إلى الإخبار به ولم يتلعثموا فلا تكون تلاوته – صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك لما أنزل فى شأنه واقعًا موقع ما لو أخبرهم به قبل

نظم الدرر : ١٥١/٣

لننظر إلى عظم العطاء من خلال الصياغة :

أولاً : قال " نبأ " ولم يقل : خبر . والنبأ الخبر العظيم ، وفى القران :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ .... ﴾ [النبأ : ١ ، ٢]

ثانيا : إسناد الفعل إلى ضمير العظمة " اتيناه . " [٢]

ثالثا : الجمع فى " آياتنا " فهو آيات ، وليست آية .

رابعا : إضافة الآيات إلى ضمير العظمة " آياتنا "

ولكن موقفه من هذا العطاء عجيب : " فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين "

" رتب أفعال الانسلاخ والاتباع والكون من الغاوين بفاء العطف على حسب ترتيبها فى الحصول ، فإنه لما عاند ولم يعمل بما هداه الله إليه حصلت فى نفسه ظلمة شيطانية مكنت الشيطان من استخدامه وإدامة إضلاله ، فالانسلاخ عن الآيات أثر من وسوسة الشيطان ... " [٣]

والتعبير بـ " انسلخ " يجتر ظلال الحية ويخلع على ذلك النماذج معانى قبيحة مرتبطة بالأصل اللغوى للكلمة [٤] " فالانسلاخ حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه جلده ...واستعير فى الآية للانفصال المعنوى وهو ترك التلبس بالشئ أو عدم العمل به . " [٥]

كما تفيد الاستعارة تمكنه من معرفة الآيات ، ومعرفة قيمتها وتمكنها من نفسه " ولكن هاهو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخا ، ينسلخ كأنما الآيات

---

[٢] والإيتاء هنا مستعار للإطلاع وتيسير العلم مثل قوله : " وأتاه الله العلم والحكمة " . التحرير والتنوير ١٧٥/٩

[٣] التحرير والتنوير ١٧٦/٩

[٤] والانسلاخ : الخروج يقال : انسلخت الحية من جلدها ، اى خرجت منه . القرطبى ٣٢١/٧

[٥] التحرير والتنوير ١٧٦/٩

أديم له متلبس بلحمه ، فهو ينسلخ منها يعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه . " [٦]

قرأ الجمهور" فأتبعه " من أتبع رباعيًا . أى لحقه وصار معه ، وهى مبالغة فى حقه ؛ إذ جعل كأنه هو إمام للشيطان يتبعه ، وكذلك فأتبعه شهاب ثاقب . [٧]

قوله " فكان من الغاوين " أبلغ من فغوى **لسببين ظاهرين :**

١) التعبير بالكون الماضى " فكان " يوحى بتمكن الصفة واستقرارها فيه .

٢) التعبير باسم الفاعل " الغاوين " يدل على ثبات الوصف وديمومته .

ويأخذنا السياق القرآنى ليعقد مقارنة بين ما كان ينتظره وما صار إليه أمره .

ما كان ينتظره رفعة الشأن " ولو شئنا لرفعناه بها " وما صار إليه أمره التسفل " ولكن أخلد إلى الأرض واتبع هواه "

والقرآن – هنا – يبرز حيثيات العقوبة ، ويرجعها إلى شيئين : الإخلاد على الأرض ، واتباع الهوى .

ولننظر إلى الدقة القرآنية فى الألفاظ ، فمع الشيطان قال : " فأتبعه " ، ومع الهوى قال : " واتبع " ؛ لأن تمكن الشيطان منه كان أقوى من تمكن الهوى فى الإضلال.

والاستدراك بلكن – كما يقول ابن القيم – يقتضى أن يثبت بعدها ما نفى قبلها أو نفى ما أثبت ...

---

[٦] الظلال : ١٣٩٦/٣

[٧] البحر المحيط : ٤٢١/٤

فالاستدراك يقتضى : ولو شئنا لرفعناه بها ولكنا لم نشأ ، أو لم نرفع ، ولكنه أخلد فكيف استدرك بقوله : " ولكنه أخلد إلى الأرض " بعد قولـه : " ولو شئنا لرفعناه " ؟

قيل : هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعانى . وذلك أن مضمون قوله : " ولو شئنا لرفعناه بها" أنه لم يتعاط الأسباب التى تقتضى رفعه بالآيات من إيثار الله ومرضاته على هواه ، ولكنه آثر الدنيا وأخلد إلى الأرض ، واتبع هـواه . " [1]

وهو ما عناه أبوحيان بقوله : " وجاء الاستدراك هنا تنبيهًا على السبب الذى لأجله لم يرفع ، ولم يشرف كما فعل بغيره ممن أوتى الهدى فآثره واتبعه . " [2]

والمتأمل فى إسناد الأفعال يلحظ أدبًا رفيعًا مع الله . ففى صفات الخير نسب الأفعال إليه " آتيناه ... شئنا ... رفعناه ... "

وفى الجانب الآخر : " انسلخ ...فكان ... أخلد " وهذا أدب رفيع يتعلم وإن كان الأمر كله من الله .

المثـل:

ويأتى المثل ليعمق المعنى ، وينفر من هذه الحالة " فمثله كمثل الكلب..."

وبداية المثل يلفت النظر : " فمثله "

إشارة إلى أنه يتكرر فهى ليست حالة وانتهت ، أو ظاهرة وانقرضت وإنما هو مثال متكرر.

---

[1] إعلام الموقعين ١/٢٢٠

[2] البحر المحيط : ٤/٤٢٢

" كمثل " استعمال القرآن لفظ المثل بعد كاف التشبيه يشى بأنه يشبه حالة بحالة وهيئة بهيئة . تشبيه مركب منتزعة فيه الحالة المشبه والحالة المشبه بها من متعدد .

ولما ذكر " إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " فى شق الحالة المشبه بها تعين أن يكون لها المقابل فى الحالة المشبهة . وتتقابل أجزاء هذا التمثيل بأن يشبه الضال بالكلب ، ويشبه شقاؤه واضطراب أمره فى مدة البحث عن الدين بلهث الكلب فى حالة تركه فى دعة ، تشبيه المعقول بالمحسوس ، ويشبهه شقاؤه فى إعراضه عن الدين الحق عند مجيئه بلهث الكلب فى حالة طرده وضربه تشبيه المعقول بالمحسوس . [1]

وقال الزمخشرى : فصفته التى هى مثل فى الخسة والضعة كصفة الكلب فى أخس أحواله وأذلها . وهى دوام اللهث به واتصاله سواء حمل عليه: أى شد عليه وهيج فطرد ، أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه ، وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منها اللهث إلا إذا هيج منه وحرك وإلا لم يلهث ، والكلب لهثه فى الحالتين جميعًا . [2]

وقد حمل على تفسير الزمخشرى للمثل العلامة ابن عاشور قال : " وقد أغفل هذا الذين فسروا هذه الآية فقرروا التمثيل بتشبيه حالة بسيطة بحالة بسيطة فى مجرد التشويه أو الخسة فيؤول إلى أن الغرض من تشبيهه بالكلب إظهار خسة المشبة كما درج عليه فى الكشاف أ . هـ [3]

والمتأمل فى عبارة الزمخشرى لا يلحظ هذا فقوله : " وهى دوام اللهث به واتصاله سواء حمل عليه ... " لا يمكن أن يكون مراده منها تشبيه حالة بسيطة .

---

(1) التحرير : ١٧٨/٩ بتصرف .
(2) الكشاف : للزمخشرى ، دار الفكر ١٣١/٢
(3) التحرير : ١٧٨/٩

واعتبر الزمخشرى أن المثل واقــع موقع العقوبة " أخلد إلى الأرض واتبع هــواه "

قال : " وكان حق الكلام أن يقال ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلــى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته ، فوضع قوله فمثله كمثل الكلــب موضــع حططناه أبلغ حط ؛ لأن تمثيله بالكلب فى أخس أحواله وأرذلهــا فــى معنــى ذلك." (١)

وتعقبه أبوحيان فقال: " وفى قوله: وكان حق الكلام .... إلى آخره سوء أدب على كلام الله تعالى .

وأما قوله فوقع قوله تمثله إلى آخره " فليس واقعًا موقع ما ذكر ، لكــن قوله " ولكن أخلد إلى الأرض " وقع موقع فحططناه "(٢)

وهو فى الأول محق ، ولكنه فى الثانية غير محق ؛ فقولــه أخلــد .. " أسباب لا عقوبات . والله أعلم

لماذا التمثيل بالكلب ؟

قال ابن القيم : وفى تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه فى حالة لهثه سر بديع ، وهو أن هذا الذى حاله ما ذكــره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الــدنيا لانقطــاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف علــيها ، ولهفه : نظيــر لهــف الكلب الدائم فى حال إزعاجه وتركه . واللهف واللهث شقيقان ، وأخوان فــى اللفظ والمعنى .....

---

(١) الكشاف للزمخشرى طبعة دار الفكر ١٣١/٢

(٢) البحر المحيط ٤٢٣/٤

فهذا يلهث على الدنيا من قلة صبره عنها ، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء . فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء وإذا عطش أكل الثرى من العطش "[٣]

وقال أيضًا : " وهو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا وأخسها نفسًا وهمته لا تتعدى بطنه وأشدها شرهًا وحرصًا ، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح حرصًا وشرهًا ، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه . وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من قرط نهمه ، والجيف القذرة أحب إليه من اللحم الطرى . والعذرة أحب إليه من الحلوى ، إذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا إلا هر عليه . ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال رزية نبحه وحمل عليه ، كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته ، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض وخضع له ولم يرفع إليه رأسه .[١]

ومن بديع هذا المثل أنه يقع مشبهًا به لمشبهين :

الأول : " الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها "

والثاني : القوم الكافرون من أهل مكة " ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا " أى الوصف وصف الذين كذبوا بآياتنا صفتهم كصفة الكلب لاهثًا في الحالتين ، فكما شبه وصف المؤتى الآيات المنسلخ منها بالكلب في أخس حالاته كذلك شبه المكذبين بالآيات حيث أوتوها ، وجاءتهم واضحات تقتضى التصديق بها فقابلوها بالتكذيب ، وانسلخوا منها "[٢] .

---

[٣] إعلام الموقعين : ٢١٧/١ ، ٢١٨ بتصرف .
[١] إعلام الموقعين ٢١٧/١ بتصرف
[٢] البحر المحيط ٤٢٣/٤

ويمكن أن تكون الإشارة لمثل المنسلخ[٣] وأن يكون إشارة لوصف الكلب[٤] .

ومع أن السوء ظاهر فى المثل ، والذم بين فيه إلا أنه أكده بصريح فعل الذم " ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا .....

وهل يقع الذم على المثل ؟

قال الرازى : " ظاهره يقتضى أن يكون ذلك المثل موصوفا بالسوء . وذلك غير جائز ؛ لأن هذا المثل ذكر الله تعالى . فكيف يكون موصوفاً بالسوء ؟ فوجب أن يكون الموصوف بالسوء ما أفاده المثل من تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها ، حتى صاروا فى التمثيل بمنزلة الكلب اللاهث "[٥] .

وتعقبه أبوحيان بقوله : " وليس كما ذكر . ليس هنا ضرب مثل ، والمثل لفظ مشترك بين الوصف وبين ما يضرب به مثلاً ، والمراد هنا الوصف . فمعنى مثله كمثل الكلب أى وصفه وصف الكلب . وليس هذا من ضرب المثل . بل كما قال : **مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا** " [البقرة : ١٧] أى صفتهم كصفة الذى استوقد .... وإذا تقرر هذا ، فقوله " مثلاً " معناه : " بئس وصفًا فليس من ضرب المثل فى شئ "[٦]

وقدره الزمخشرى بحذف مضاف أى مثل القوم أو ساء أصحاب مثل القوم "[٧]

وتذييل المثل يكشف مآل التكذيب وعاقبته " وأنفسهم كانوا يظلمون " .

---

[٣] براجع التحرير والتنوير : ١٧٩/٩
[٤] السابق .
[٥] مفاتيح الغيب : ٦٢/١٥
[٦] البحر المحيط ٤٢٤/٤
[٧] ينظر : الكشاف : ١٣١/٢

وتقـديم المفعول يفيد الاختصاص على نحو ما أشـار الزمخـشرى وغيره كأنه قـال : ما ظلـموا إلا أنفسهم ، وشأن العاقل أن لا يؤذى نفسه ، وفيه إزالة تبجحهم بأنهم لم يتبعـوا محمدًا – صلى الله عليه وسلم – ظنًا منهم ان ذلك يغيظه ويغيظ المسلمين إنما يضـرون أنفسهم "[1]

ويأتى المثل القرآنى يصور أثر الشرك على صاحبه ، وخطره عليه وعواقبه ، ويبرز المهالك التى تجتمع عليه فتهلكه ، يقول القرآن : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١]

يأتى هذا المثل فى سياق سورة الحج فى إطار تحطيم الشرك ، ورفض الوثنية ، وإعلان التوحيد الخالص لله عز وجل . ﴿ ... فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ .... ﴾ [الحج ٣٠ ، ٣١]

دعا إلى اجتناب الشرك وقول الزور فى قرن واحد تحت مسمى " رجس"

والرجس القذر ، وسماه رجسًا لأنها سبب الـرجس وهـو العـذاب ، وقيل: جعلها سبحانه حكمًا ، والرجس البخس ، وليست النجاسة وصفًا ذاتيًـا لها ولكنها وصف شرعى .

والزور : هو الباطل ، وسمى زورًا لأنه مائل عن الحق ومنه قوله تعالى : ﴿ تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ [الكهف : ١٧] وقولهم مدينة زوراء أى مائلة، والمراد هنا قول الزور على العموم

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير ١٨٠/٩ ، والكشاف : ١٣١/٢

وأعظمه الشرك بالله بأى لفظ كان[٢] . فكلاهما – الشرك وقول الزور – باطل ، وكلاهما ميل عن الحق ، ولعل ذلك يفسر اجتماعهما فى سياق واحد .

يقول أبوحيان : " لما حث على تعظيم حرمات الله .... أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور ؛ لأن توحيد الله ونفى الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات ، وجمعا فى قران واحد ؛ لأن الشرك من باب الزور لأن المشرك يزعم أن الوثن يستحق العبادة فكأنما قال: (فاجتنبوا عبادة الأوثان التى هى رأس الزور ، واجتنبوا قول الزور كله) "[٣]

" والأمر باجتناب الأوثان مستعمل فى طلب الدوام كما فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ .... ﴾ [النساء : ١٣٦] [١]

ولما أمر باجتناب عبادة الأوثان وقول الزور ضرب مثلاً للمشركين " ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء .... " يجوز فى هذا التشبيه – كما قال الزمخشرى وغيره[٢] – أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيهًا مركبًا فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكًا ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعًا فى حواصلها . أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة .

وإن كان مفرقًا شبه الإيمان فى علوه بالسماء والذى ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، والأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة .

---

[٢] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني ٣/ ٤٥١ طبعة : دار الفكر ، بيروت د . ت

[٣] البحر المحيط : ٣٣٩/٦، ٣٤٠

[١] التحرير والتنوير : ٢٥٣/١٧

[٢] ينظر الكشاف : ١٢/٣ ، ١٣ ، والبحر المحيط : ٣٤٠/٦ ، وتفسير ابن القيم : ٣٣١

ونلاحظ فى المثل :

أ- سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها فى اللفظ " بالفاء " ، وفى المنظر بسرعة الاختفاء ، على طريقة القرآن فى التعبير بالتصوير. [٣]

ب- لفظ السماء يتسق مع علو الإيمان ورفعته ، وثمرة الاتصال بالله ، فالإيمان يرفع والشرك يسفل . يقول البقاعى : " فكأنما خر من السماء " لعلوا ما كان فيه من أوج التوحيد وسفول ما انحط إليه من حضيض الإشراك " [٤]

والآية من الاحتباك : خطف الطير الملزوم للتقطع أولاً دل على حذف التقطع ثانيًا ، والمكان السحيق الملزوم لبلوغ الأرض ثانيًا دليل على حذف ضده أولاً " [٥]

جـ- حتمية الهلاك بجمع مهلكين لا مهلك واحد .

الأول : " تخطفه الطير " .

والثاني : " تهوى به الريح فى مكان سحيق " .

د- الترتيب العجيب بين المهلكين فتخطفه الطير وهو نازل فى الهواء قبل أن يصل إلى الأرض ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق إذا لم يجد فى الهواء ما يهلكه .

ويمكن أن يكون التخيير فى نتيجة التشبيه مشيرًا إلى أن الكفار قسمان: قسم شركه ذبذبة وشك ، فهذا مشبه بمن اختطفته الطير فلا يستولى طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر . فذلك المذبذب متى لاح خيال أتبعه وترك ما كان عليه .

---

[٣] فى ظلال القرآن : ٢٤٢١/٤

[٤] نظم الدرر : ١٥٠/٥

[٥] السابق

وقسم مصمم على الكفر مستقر فيه فهو مشبه بمن ألقته الريح في واد سحيق "[1] .

هـ- وصف المكان بأنه سحيق أى بعيد فى السقوط فيتقطع حال وصوله إلى الأرض بقوة السقطة وشدة الضغطة لبعد المحل الذى خر منه وزل عنه.

ولكن كيف وصف بأنه خر من السماء ؟ وهل كان فى سماء حتى يخر منها ؟

إنها سماء الإيمان الفطرى فالأصل أن الإنسان يولد على الفطرة فهو فى سماء الإيمان ، وإذا انحرف عن الفطرة فقد خر من السماء .

صورة الكافر أمام التذكرة :

يأتى المثل القرآنى برسم صورة للكافرين حين يسمعون القرآن يذكر أو الرسول يعظ ، يقول القرآن : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۞ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾[المدثر ٤٩: ٥١]

سياق المثل :

المثل يأتى بعد عرض مشهد من مشاهد القيامة ، وقد انقسم الناس إلى فريقين أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال . تم حوار وتساؤل عن المجرمين : " ما سلككم فى سقر ..... " إنه مشهد يهز النفس ، ويحرك المشاعر ، وأولى بهم أن يخضعوا له ، وأن يتأثروا به ، لا أن يدبروا عنه ، ويفروا منه ، ولذلك كان التعجيب بضرب المثل " فما لهم عن التذكرة معرضين "

---

[1] التحرير والتنوير ٢٥٥/١٧

قال البقاعي : " لما كان هذا الإخبار بنعيم المنعم وعذاب المعذب موجبًا للتذكر ، سبب عنه الإنكار عليهم " [1]

واختار الحمر الوحشية ؛ لأنها أشد الأشياء نفارًا ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب فى وصف الإبل بسرعة السير بالحمر فى عدوها إذا وردت ماء فأحست عليه ما يريبها .

من ذلك قول لبيد فى تشبيه راحلته فى سرعة سيرها بوحشية لحقها الصياد :

فتوجست رز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها

وقد كثر ذلك فى شعر العرب فى الجاهلية والإسلام ، كما فى معلقة طرفة ، ومعلقة لبيد ، ومعلقة الحارث ، وأراجيز رؤبة ابنه وفى شعر ذى الرمة . [2]

وقد " شبههم فى إعراضهم ونفورهم من القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه "

وهذا من بديع القياس والتمثيل فإن القوم فى جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر ، وهى لا تعقل شيئًا ، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامى نفرت منه أشد النفور . [3]

" وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة ، فإنها لشدة نفورها ، قد استنفر بعضها بعضًا وحضه على النفورية فإن فى الاستفعال من الطلب قدرًا زائدًا على الفعل المجرد فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه . " [4]

---

[1] نظم الدرر : ٢٣٨/٨
[2] التحرير والتنوير : ٣٢٩/١٤
[3] إعلام الموقعين : ٢١٥/١
[4] السابق : ٢١٦/١

ويمكن أن يكون مع نفسها أى تطلب من نفوسها النفار .

قال الزمخشري : " والمستنفرة : الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له وحملها عليه " [١]

" وفى تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم كما فى قوله تعالى : " كمثل الحمار يحمل أسفارا " وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل ، ولا تر مثل نفار حمير الوحش ولطرادها فى العدو إذا رابها رائب . [٢]

وقوه " مستنفرة " قرأ نافع وابن عامر والمفضل عن عاصم " مستنفرة " بفتح الفاء ، والمعنى : استنفرها فزعها من القسورة .

وباقى السبعة بكسرها " مستنفرة " أى نافرة نفر .... ويناسب الكسر قوله " فرت " [٣] " كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له ، وحملها عليه" [٤]

أو كما يقول ابن القيم : فكأنها تواصلت بالنفور وتواطأت عليه " [٥]

قال أبوعلى الفارسى : " الكسر فى " مستنفرة " أولى لقوله : " فرت " للتناسب ؛ لأنه يدل على أنها استنفرت ، ويدل على صحة ذلك ما روى عن محمد بن سلام قال : سألت أبا سوار الغنوى – وكان عربيًا فصيحًا – فقلت : كأنهم حمر ماذا ؟ فقال : مستنفرة طردها قسورة ، فقلت : إنما هى فرت من قسورة ، فقال : أفرت ؟ قلت : نعم ، فمستنفرة إذًا . " [٦]

---

[١] الكشاف : ١٨٧/٤١
[٢] السابق : ١٨٨/٤
[٣] ينظر : البحر المحيط : ٣٧٢/٨
[٤] الكشاف : ١٨٧/٤
[٥] إعلام الموقعين : ٢١٦/١
[٦] اللباب فى علوم الكتاب ، أبوحفص عمرو بن على ، تح : عادل أحمد ، على محمد معوض : ٥٣٧/١٩ ، دار الكتاب العلمية – بيروت . ط أولى ١٤١٩ - ١٩٨١

ومن بديع النظم الكريم :

١- الفاء فى قوله " فما لهم " فهى لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها . " [١]

والاستفهام للإنكار المشعر بالتعجب ، يقول ابن عاشور : " ما لهم " استفهام مستعمل فى التعجيب من غرابة حالهم بحيث تجدر أن يستفهم عنها المستفهمون ، وهو مجاز مرسل بعلاقة الملازمة . " [٢]

٢- قوله : " معرضين " حال من الضمير فى لهم " أى أن المستفهم عنه ، والمتعجب فى أمره حالة الإعراض هذه ، وتقديم التذكرة على الحال لأنها المعنى بالاهتمام لمزيد من التعجيب من أمرهم ، فهو ليس أى إعراض إنما هو إعراض عن تذكرة . والأصل أنها ترغب ولا تنفر .

٣- واختيار أداة التشبيه الأقوى " كأن " ليوحى بقوة التشابه بين حال المشبه والمشبه به .

٤- **كلمة " قسورة " :**

قيل : معناها : الرماة الصيادون ، وقيل : إنه الأسد ، وقيل : الظلام ، وروى عن ابن عباس : القسورة بلسان العرب الأسد ، وبلسان الحبشة الرماة ... " [٣]

فى الكلمة – على كل حال – غرابة تتسق مع غرابة موقف الكفار من التذكرة ، وبذلك يتشاكل اللفظ والمعنى .

---

[١] فتح القدير : ٣٣٣/٥

[٢] التحرير والتنوير : ٣٢٩/١٤

[٣] القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : ٨٩/١٩

كما أن تعدد معنى " قسورة " يحمل الجملة على أكثر من تشبيه . وهذا يتناسب مع تنوع حال المخاطبين بالقرآن الكريم ، فكل يختار ما يتسق وطبيعته .

ثانياً : الموازنة بين الكافرين والمؤمنين :

ضرب القرآن الكريم أمثالاً لتصوير الإيمان فى نفس المؤمن وأثره عليه ، وأخرى للكافر تبرز صورة الكفر المشين ، وعاقبته الوخيمة للتنفير منها والابتعاد عنها .

ومن خلال التأمل نجد القرآن يجمع الاثنين فى قرن واحد عن طريق المقابلة أو التضاد لتشعر النفس بالفارق ، وتخسس بعد الهوة ، وسعة المسافة والفارق الكبير بين الاثنين على طريق " والضد يظهر حسنه الضد " ، وبضدها تتميز الأشياء .

وهو أشبه بموازنة بين فريقين تقوم على أساس الطباق ، وتمتد إلى ما وراء الطباق ، من خلال جدلية التضاد ، التى تقوم على أساس التصادم بين معنيين .

ويزاد شأوها ، ويعظم تأثيرها إذا كان الطباق مبنيًا على التصوير الاستعارى ، فإنه يجمع بين طريقتين لإبراز المعنى : فتارة من خلال الطباق ، وأخرى من خلال التصوير والتجسيد .

ومن ذلك :

(١) ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[هود : ٢٤]

يجئ هذا المثل متسقًا مع السياق من جهة ومتساوقًا مع موضوع السورة " سورة هود " من جهة أخرى ، فالسياق يتحدث عن الكفار وعنادهم وتحديهم وعجزهم " قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ..... " " فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا .... الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا ..... " ثم أردف بخسارتهم " لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون " وفتح صفحة جديدة للمؤمنين ومكافأتهم " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هو فيها خالدون "

أيضًا متسقًا مع موضوع السورة التى تحشد قصصًا هائلاً للأنبياء مع أقوامهم وتبرز مكافأة الإيمان وعقوبة الكفران .

فى وسط هذه الأجواء ، بين المناقسة النظرية وبين المناقسة الواقعية من خلال قصص الأنبياء بين هذا وذلك يأتى المثل القرآنى : " مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير و..... "

ليكون كالتذليل للمناقشة النظرية ، والافتتاح الملخص المثير للمناقشة الواقعية من خلال قصص الأنبياء .

قال الطاهر ابن عاشور: "فالجملة فذلكة للكلام وتحصيل له وللتحذير من مواقعة سببه"[1]

" مثل الفريقين .... "

الفريقان هنا الكافرون والمؤمنون ، ولما كان تقدير ذكر الكفار وأعقب بذكر المؤمنين ، جاء التمثيل هنا مبتدأ بالكافر فقال : " كالأعمى والأصم . " [2]

---

[1] التحرير والتنوير : ٤٠/٦

[2] البحر المحيط : ٢١٤/٥

وضرب مثلاً بالأعمى والأصم للكافرين لسببين :

١- اتساقًا مع الحكم السابق عليهم " **ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون** " [هود : ٢١]

٢- ولأن حاستى السمع و البصر ضروريتان للهداية .

ومن بديع القرآن أنه أكد المعنى متحاشيًا التكرار ففى الأولى نفى السمع ، وبدأ به ، ثم نفى البصر وثنى به .

وفى المثل بدأ بالثانى " الأعمى " وثنى بالأول " الأصم " وسمى الأول أعمى ، ولم يكرر ما كانوا ويبصرون ، والآخر أصم ولم يقل " ما كانوا يستطيعون السمع "

أما تحاشى التكرار فقد ذكر معنى العمى مرتين مرة بالنفى " وما كانوا يبصرون " وأخرى بالإثبات " كالأعمى "

وكذلك معنى الصمم ذكره مرة بنفى السمع " ما كانوا يستطيعون السمع " وأخرى بالإثبات " الأصم "

والمثل من باب التشبيه ويرشحه الكاف . " وهذا التشبيه تشبيه معقول بمحسوس ، فأعمى البصيرة مشبه بأعمى البصر أصم السمع ، ذلك فى ظلمات الضلال متردد تائه ، وهذا فى الطرقات محير لا يهتدى إليها . " [٣]

والتشبيه محتمل أن يكون متعددًا من باب اللفيف المقرون على غرار **قول امرئ القيس** :

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العناب والخشف البالى

فالمشبه : الفريقان . وهو متعدد كأنه قال : مثل فريق المؤمنين وفريق الكافرين كالأعمى والأصم ، وكالبصير والسميع .

---

[٣] البحر المحيط : ٥/٢١٤

" ويحتمل أن يكون من تشبيه واحد بوصفيه ، بواحد بوصفيه فيكون من عطف الصفات ، **كما قال الشاعر** :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكريهة فى المزدحم [1]

والملاحظ أنه جمع ما يخص كل فريق متتاليًا ، ففى مثل الكافرين قال : " كالأعمى والأصم " وفى حق المؤمنين قال : " كالبصير والسميع " إبرازًا للتفاوت وإشعارًا بالتمايز بين الفريقين . فليس ثمة التقاء بينهما ليجمعهما .

فالفريق الكافر أبرز ما يميزه الانسداد : انسداد السمع ، وانسداد البصر ، والفريق المؤمن أبرز ما يميزه انفتاح الحواس ، ولا سيما السمع والبصر .

ولهذه الخصوصية جاء المثل مبنيًا على المقابلة لتوضيح المفارقة ولهذا – أيضًا – سماهما فريقين " فالفريق الجماعة التى تفارق ، أى تخالف حالها حال جماعة أخرى فى عمل أو نحلة . " [2]

والملاحظ أنه عطف الأصم على الأعمى بالواو ، وفى سورة البقرة ذكر الصفات من غير عطف " صم بكم عمى "

قال أصحاب الحواشى فى الكشاف : العطف مبنى على تغاير الصفات منزلة تغاير الذوات .

والوجه عندى – الكلام لابن عاشور – فى الداعى على عطف صفة " الأصم " على صفة " الأعمى " أنه ملحوظ فيه أن لفريق الكفار حالين كل حال منهما جدير بتشبيهه بصفة من تينك الصفتين على حدة ، فهم يشبهون الأعمى فى عدم الاهتداء إلى الدلائل التى طريق إدراكها البصر ، ويشبهون الأصم فى عدم المواعظة النافعة التى طريق فهمها السمع ، فهم فى حالتين كل

---

[1] البحر المحيط : ٢٤١/٥

[2] التحرير والتنوير : ٤١/٦

حال منهما مشبه به ، ففى قوله تعالى : " كالأعمى والأصم " تشبيهان مفرقان كقول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العناب والحشف البالى...

وأما الداعى إلى العطف فى صفتى البصير والسميع بالنسبة لحال فريق المؤمنين فبخلاف ما قررنا فى حال فريق الكافرين لأن حال المؤمنين تشبه حالة مجموع صفتى البصير والسميع ، إذ الاهتداء يحصل بمجموع الصفتين فلو ثبتت إحدى الصفتين وانتفت الأخرى لم يحصل الاهتداء .[1]

ويتبادر إلى الذهن سؤال : لم جمع صفات كل فريق متتالية ؟ أو بعبارة أخرى : لم لم يقل مثل الفريقين كالأعمى والبصير ، والأصم والسميع لتكون المقابلة فى لفظ الأعمى وضده البصير ، وفى لفظ الأصم وضده السميع ؟

أجاب أبوحيان : " لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، ولما ذكر انفتاح البصر أتبعه بانفتاح السمع ، وذلك هو الأسلوب فى المقابلة والأتم فى الإعجاز. " [2]

فقد لاحظ أبوحيان تناسبًا يجمع بين صفتى كل فريق فالانغلاق يميز حواس الكفار ، والانفتاح يميز حواس المؤمنين ، فالمقابلة بين انغلاق حواس وانفتاحها .

وبدأ بالأعمى ؛ لأن المقام مقام تنفير ، والعمى لكونه ملحوظًا بالنظر ادعى إلى التنفير من الصمم .

قوله : " هل يستويان مثلاً " :

تساؤل لكشف الغرض من التمثيل كأنه يقول : كما اتضح لكم الفارق بين فريق أعمى أصم وبين آخر بصير سميع يجب أن يتضح الفارق بين

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير : ٤٢/٦ بتصرف
[2] البحر المحيط : ٢١٤/٥

المؤمن وبين الكافر ، فصورة الكافر منفرة ، وصورة المؤمن مغرية . " هل يستويان مثلاً " والاستفهام بحرف التصديق " هل " الذى لا يحتاج فى هذا السياق إجابة إلا بـ " لا " . ولذلك ففى الاستفهام معنى الإنكار والنفى .

وجاء " أفلا يتذكرون " لينبه على أنه يمكن زوال هذا العمى وهذا الصمم المعقول فيجب على العاقل أن يتذكر ما هو فيه ، ويسعى فى هداية نفسه . " [٣]

وإيثار التذكر بالذكر – دون غيره – من التفكر أو التعقل ؛ " لأن القضية فى وضعها هذا لا تحتاج إلى أكثر من التذكر . فهى بديهة لا تقتضى التفكير .

وتلك وظيفة التصوير الذى يغلب فى الأسلوب القرآنى فى التعبير .... أن ينقل القضايا التى تحتاج لجدل فكرى إلى بديهيات مقررة ، لا تحتاج إلى أكثر من توجيه النظر والتذكير."[١]

وفى الآية من البديع لف ونشر مرتب حيث ذكر الفريقين المؤمنين والكافرين ، ثم ذكر ما يناسب كل فريق ، وفيه تشويق رائع من جهة ، وتعانق وثيق من جهة أخرى .

" وقد يعتبر التشبيه تمثيليًا بأن ينتزع من حال الفريق الأول فى تصامهم وتعاميهم المذكورين ، ووقوعهم بسبب ذلك فى العذاب المضاعف والخسران الذى لا خسران فوقه هيئة منتزعة ممن فقد مشعرى البصرى والسمع فتخبط فى مسلكه فوقع فى مهاوى الردى ولم يجد إلى مقصده سبيلاً .

---

[٣] البحر المحيط : ٢١٤/٥

[١] فى ظلال القرآن : ١٨٦٨/٤

وينتزع من حال الفريق الثانى " المؤمنين " فى استعمال مشاعرهم فى آيات الله حسبما ينبغى وفوزهم بدار الخلود هيئة تشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما فى مهامه فيهتدى إلى سبيله وينال مراده "

هذا كلام الألوسى شارحًا كلام أبى السعود ، ولكنهما رجحا الإفراد على التركيب ؛ واعتبرا التركيب على خلاف الظاهر ، قال الألوسى : " ولا يخفى أنه خلاف الظاهر . ولعل أظهر الاحتمالات ما أشير إليه أولاً . " [٢]

وأرجح أن يكون المثل من قبيل التركيب :

١- لتصدره بقوله : " مثل "

٢- وليتسق مع ما سبقه من أحوال الكافرين وعقوبتهم ، وأحوال المؤمنين ومكافأتهم .

٣- ووجدت عند بعضهم – كابن عاشور مثلاً – من يقول بأنه مفرد أو متعدد، ولكنه يجريه مجرى المركب ، فمثلاً يقول ابن عاشور : " المثل بالتحريك الحالة والصفة ..... ، أى حالة الفريقين المشركين والمؤمنين تشبه حال الأعمى والأصم من جهة ، وحال البصير والسميع من جهة أخرى "

وهل الحال إلا هيئة ممتزجة منتزعة من مجموعة أمور متداخلة ؟

وقال – أيضًا – : شبه حال فريق الكفار فى عدم الانتفاع بالنظر فى دلائل وحدانية الله الواضحة من مخلوقاته بحال الأعمى، وشبهوا فى عدم الانتفاع بأدلة القرآن بحال من هو أصم .

وشبه حال فريق المؤمنين فى ضد ذلك بحال من كان سليم البصر ، سليم السمع فهو فى هدى ويقين من مدركاته "

---

[٢] ينظر : روح المعانى : ٣١٨/٦ ، أبو السعود : ١٩٨/٤

لنتأمل قوله وهو يحدد صورة المشبه " شبه حال فريق الكفار فى عدم الانتفاع بالنظر إلى دلائل وحدانيته .....

هـل هـذا إلا تركـيب ؟

٤- لعـل الذى دعاهم إلى اختيار الإفراد أن القرآن لم يصرح بالهيئـة فـى المثل .

ولكن المتأمل فى الآيات السابقة يجد إشارات واضحة إلـى أن الهيئـة معتبرة ، واكتفى بما ذكر من أحوال للفريقين عن التصريح بهـا فـى المثل .

وفى ظنى أن صورة المثل لا يكتمل إلا بالهيئة المقدرة المعتبرة من السياق . والله أعلم .

وكونه تمثيلاً هو الوجه الأول عند أبى حيان ، قال : " جاء التمثيل هنا مبتدأ بالكافر فقال " كالأعمى والأصم " ويمكن أن يكون من باب تشبيه اثنـين باثنين .... " [1] .

ومنه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .... ﴾ [الأنعام : ١٢٢]

نحن أمام مثل مقارن بين نوعين من البشر كلاهما تعرض لمؤثر واحد فريق تأثر فتغير ، وآخر لم يتأثر ولم يتغير .

---

[1] البحر المحيط : ٥/٢١٤

ما قبل الإيمان موت ، وما بعده حياة .واستعارة الموت للكفر كثير فى القرآن ، ومن ذلك : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الروم : ٥٢] ، ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٣٦] ، ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ ﴾ [فاطر : ٢٢]

واستعارة الحياة للإيمان كقوله : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس : ٧٠]

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ ﴾ [فاطر : ٢٢]

وتصوير الكفر بالظلمات ، والإيمان بالنور – أيضا – كثير ، من ذلك :

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

[البقرة : ٢٥٧]

وكقوله : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم :١]

هذا تمثيل يهدف لأمرين :

أولهما : تحفيز النفس للاستجابة للحق والترقى به .

ثانيهما : الفرق الهائل بين المستجيب والمتمرد ، أو – كما يقول الألوسى – : " تمثيل مسوق لتنفير المسلمين عن خاتمة المشركين إثر تحذيرهم عنها بالإشارة إلى أنهم مستضيئون بأنوار الوحى الإلهى ، والمشركون غارقون فى ظلمات

الكفر والطغيان فكيف يعقل طاعتهم له ، فالآية كما قال الطيبى متصلة بقوله : " وإن أطعتموهم ..... "[1]

فالتمثيل يأتى متسقًا مع التنفير من طاعة المشركين ، وإبرازًا للفارق بين المؤمنين والكافرين .

وجمع الصورتين فى قرن متعاقب ليتملاهما المتلقى " ويتبين الفرق بين المؤمنين للاقتداء بهم ، والكافرين الضالين للتنفير من طاعتهم والحذر من غوايتهم "[2]

وأكاد أرى لوحتين : لوحة الإيمان ، حيث الحيوية والحركة ، والأنوار المشرقة والهداية والاستقامة على الطريق " فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به ..... "

واللوحة الثانية : تكاد ظلالها تظهر سوادًا فى وجه المتلقى ، وألمًا فى نفسه ، وقتامًا فى صدره ، فهو يرى سكونًا هامدًا ، وموتًا جاثمًا ، وظلامًا فى كل اتجاه : " كمن مثله فى الظلمات "

" وإن ما يبدو فى الصورة من تشبيه ومجاز إنما هو لتجسيم هذه الحقيقة ..... فهذه العقيدة تنشئ فى القلب حياة بعد الموت ، وتطلق فيه نورًا بعد ظلمات .

حياة يعيد بها تذوق كل شئ ، وتصور كل شئ ، وتقدير كل شئ بحس آخر لم يكن يعرفه من قبل .....

والكفر حجاب للروح من الاستشراف والإطلاع فهو ظلمة ، وختم على الجوارح والمشاعر "[1]

---

[1] روح المعانى : ٣٥٥/٤
[2] المنار : ٢٩/٨
[1] فى ظلال القرآن : ١٢٠٠/٣

وارتكاز المعنى على الطباق يساعد فى إظهار الفارق بين الفريقين (ميتًا ، فأحييناه) ، (جعلنا له نورا ، كمن مثله فى الظلمات) .

فالحياة والنور مثلان للهداية والإيمان ، بجامع الانتفاع .

والموت والظلام مثلان للكفر والضلال بجامع عدم الانتفاع .

" وقد روعى فى تشبيه الكافر ما روعى فى جانب تشبيه المؤمن ، فقد قال سبحانه وتعالى فى تشبيه المؤمن : " وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس " فقوله : " يمشى به فى الناس " زيادة تقرير وإيضاح .

وقال فى جانب الكافر : " كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها " فقوله : " ليس بخارج منها " زيادة تقرير وإيضاح ، لما روعيت هناك روعيت هنا . فتعادلت كفتا الميزان[٢] .

وأشار الرازى إلى أن فى قوله : " ليس بخارج منها " دقيقة عقلية ، وهى أن الشئ إذا دام حصوله مع الشئ صار كالأمر الذاتى ، والصفة الملازمة ، فإذا دام كون الكافرين فى ظلمات الجهل والأخلاق الذميمة صارت تلك الظلمات كالصفة الذاتية الملازمة له يعسر إزالتها عنه . نعوذ بالله من هذه الحالة .[٣]

وجمع الظلمات لتعددها وتنوعها وكثافتها ، فالجهل ظلمة ، والضلال ظلمة ، والعناد ظلمة ، واتباع الهوى ظلمة . إنها ظلمات بعضها فوق بعض .

هل المثل من قبيل الاستعارة التمثيلية أم من قبيل تشبيه التمثيل ؟

---

[٢] خصائص التعبير القرآنى : د/ عبدالعظيم المطعنى ، مكتبة وهبه ، ط أولى ١٤١٣ ـ ١٩٩٢ : ٢١٤/٢

[٣] مفاتح الغيب : ١٨١/١٣

" نص القطب الرازى على أنهما تمثيلان لا استعارتان ، ورد – كما قال الشهاب – بأن الظاهر بأن من كان ميتًا ، ومن مثله فى الظلمات من قبيل الاستعارة التمثيلية ، إذ لا ذكر للمشبه صريحًا ولا دلالة بحيث ينافى الاستعارة ، والاستعارة الأولى بجملتها مشبه ، والثانية مشبهة به "[٤]

فنحن أمام استعارة تمثيلية من جهة ، وتشبيه تمثيلى من جهة أخرى .

" ونحا القطب الرازى فى شرح الكشاف القبيل الأول " تشبيه التمثيل " ونحا التفتزانى إلى القبيل الثانى " استعارة تمثيلية " .

والأظهر ما نحاه التفتزانى : أنهما استعارتان تمثيليتان ، وأما كاف التشبيه فهو متوجه إلى المشابهة المنفية فى مجموع الجملتين لا إلى مشابهة الحالين بالحالين ، فمورد كاف التشبيه غير مورد تمثيل الحالين ، وبين الاعتبارين بون خفى . " [١]

واعتبر د/ عبدالعظيم المطعنى هذا المثل من قبيل " التشبيه السلبى " ويشرحه بقوله : " تجد فى القرآن الكريم – أحيانًا – هذه الأداة لا تعقد تلك الصلة بين طرفى التشبيه ، فهى تتوسطهما ، وليس بين ذينك الطرفين شبه ما ، فقد يكونان ضدين أو كالضدين أو غيرهما .

ويكثر هذا النوع من التشبيه والذى يمكن أن نصطلح على تسميته – من الآن – بالتشبيه السلبى ، كما جاء فى العنوان ، وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ، والطاعة والمعصية "[٢] واستشهد بالمثل ضمن ما استشهد

---

[٤] روح المعانى : ٣٥٦/٤

[١] التحرير والتنوير : ٤٤/٨

[٢] خصائص التعبير القرآنى : ٢٧٠/٢ ، ٢٧١

وهو بذلك يقترب من الطاهر بن عاشور لكن لم أر هذه التسمية " التشبيه السلبى " عن غيره فهى محل نظر ودراسة .

ومن بديع النظم الكريم : تصدير المثل بالإستفهام الإنكارى " أو من كان ميتًا " فهو ينفى المشابهة بين من أسلم ومن بقى فى الشرك .

ومن بديع النظم أنه أسند لنفسه سبحانه صفات الجمال " فأحييناه ، وجعلنا له نورًا .... " بينما مع الآخر تركه للضال نفسه ، ولم ينسب شيئًا لله " كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها " مراعاة للأدب مع الله .

يقول أبو حيان : " لما ذكر صفة الإحسان إلى العبد المؤمن نسب ذلك إليه ، فقال : " أحييناه وجلنا له نورًا " . وفى صفة الكافر لم ينسبها إلى نفسه ، بل قال : " كمن مثله فى الظلمات . " [٣]

وقوله : " فى الناس " يشعر بأن خير المؤمن ليس قاصرًا على ذاته بل يعم الآخرين .

وقد يأتى التمثيل يصور اضطراب نفس الكافر وتعسفه فى عقيدته واشتباه الأمر عليه ويقارنه بصورة المؤمن الذى عرف الحق واهتدى إليه .

يقول القرآن: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢]

هذا مثل ضربه الله تعالى للكافرين والمؤمنين ، أو لرجلين كافر ومؤمن ؛ لأنه جاء مفرعًا على قوله : " إن الكافرون إلا فى غرور " وعلى قوله : " بل لجو فى عتو ونفور "[١]

---

[٣] البحر المحيط : ٢١٦/٤

[١] التحرير والتنوير : ٤٤/١٤

ويقول أبو السعود : " مثل ضرب للمشرك والموحد توضيحًا لحالهما ، وتحقيقًا لشأن مذهبيهما " [٢]

" والمكب : الساقط على وجهه . يقال : أكب خر على وجهه ، وحقيقته : صار ذا كب ودخل فى الكب كأقشع الغمام أى صار ذا قشع " [٣]

" والذى يمشى مكبًا على وجهه إما أن يكون هو الذى يمشى على وجهه فعلاً ، لا على رجليه فى استقامة كما خلقه الله ، وإما أن يكون هو الذى يعثر فى طريقه فينكب على وجهه ثم ينهض ليعثر من جديد "[٤]

" والتمثيل جرى على تشبيه حال الكافر والمؤمن بحالة مشى إنسان مختلفة ، وعلى تشبيه الدين بالطريقة المسلوكة كما يقتضيه قوله : " على صراط مستقيم " فلابد من اعتبار مشى المكب على وجهه مشيًا على صراط معوج "[٥]

فالآية تشتمل على ثلاث استعارات تمثيلية ، فقوله : " يمشى مكبًا على وجهه " تشبيه لحال المشرك فى تقسيم أمره بين الآلهة طلبًا للذى ينفعه منها الشاك فى انتفاعه بها بحال السائر قاصدًا أرضًا معينة ليست لها طريقة جادة ، فهو يتبع بنيات الطريقة الملتوية وتلتبس عليه ، ولا يوقن بالطريقة التى تبلغ إلى مقصده ، فيقف حائرًا متوسمًا يتعرف آثار أقدام الناس وأخفاف الإبل فيعلم بها أن الطريقة مسلوكة أو متروكة .

وفى ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنية عليها بقوله : " مكبًا على وجهه " بتشبيه حال المتحيز المتطلب للآثار فى الأرض بحال المكب على وجهه فى شدة اقترابه من الأرض .

---

[٢] أبوالسعود : ٩/٩
[٣] السابق نفسه
[٤] الظلال : ٦ / ٣٦٤٤
[٥] التحرير والتنوير : ١٤/٤٤

وقوله : " أمن يمشى سويًا " تشبيه لحال الذى آمن برب واحد ، الواثق بنصر ربه وتأييده ، وبأنه مصادف للحق بحال الماشى فى طريقة جادة واضحة لا ينظر إلا إلى اتجاهه ووجهه فهو مستو فى سيره "[1]

والمعنى كما يقول الألوسى – بعبارة أخصر – : " أفمن يمشى وهو يعثر فى كل ساعة ويخر على وجهه فى كل خطوة لتوعر طريقه واختلاف أجزائه بانخفاض بعض وارتفاع بعض آخر أهدى وأرشد إلى المقصد الذى يؤمه أم من يمشى قائمًا سالمًا من الخبط والعثار على طريق مستوى الأجزاء لا اعوجاج فيه ولا انحراف ..... "[2]

وتفسير الألوسى يشعر بأنها استعارتان تمثيليتان لا ثلاثة كما قال الطاهر بن عاشور .

وهو ما يتسق مع تداخل أجزاء المثل ليكون هيئة واحدة ، ويتسق – كذلك – مع المقابلة بمثل المؤمن .

فالمعنى – كما يقول أبوحيان – : " أن الكافر فى اضطرابه وتعسفه فى عقيدته وتشابه الأمر عليه كالماضى فى انخفاض وارتفاع ، كالأعمى يتعثر كل ساعة فيخر لوجهه ، وأما المؤمن فإنه لطمأنينة قلبه بالإيمان ، وكونه قد وضح له الحق كالماشى صحيح البصر مستويًا ينحرف على طريق واضح الاستقامة لا حزون فيها ، فآلة نظره صحيحة ، ومسلكه لا صعوبة فيها . " [3]

---

(1) التحرير والتنوير : ٤٥/١٤
(2) روح المعانى : ٢٩/١٥
(3) البحر المحيط : ٢٩٧/٨

وتصدير المثل بالاستفهام لنفى المماثلة والمشابهة بين المؤمن والكافر " فهذا الاستفهام لا تراد حقيقته بل المراد منه أن كل سامع يجيب بأن " الماشى سويًا على صراط مستقيم أهدى "[٤]

والتعبير بالمضارع " يمشى " لاستحضار صورته وهيئته ليتمثلها المخاطب ويتخيلها فيزداد نفورًا .

قوله " مكبـًا " أى داخلاً بنفسه فى الكب وصار إليه، وهو السقوط " على وجهه " وهو كناية عن السير على رسم مجهول وأثر معوج معلول ، على غير عادة العقلاء لخلل فى أعضائه ، واضطراب فى عقله ورأيه ، فهو كل حين يعثر فيخر على وجهه "[١] . فسبب الكب على وجهه خلل أعضائه .

ويجوز أن يراد الأعمى الذى لا يهتدى إلى الطريق فيتعسف فلا يزال يكب على وجهه ، وأنه ليس كالرجل السوى الصحيح البصر الماشى فى الطريق المهتدى له "[٢] .

والمتأمل فى المثل يجد فارقًا ملحوظًا ، فمع المؤمن صرح بالطريق " يمشى سويًا على صراط مستقيم " ، بينما مع الكافر لم يصرح بالطريق بل أشير إليه بما دل على توعره وعدم استقامته أعنى مكبًا للإشعار بأن ما عليه لا يليق أن يسمى طريقًا "[٣] .

وأهدى أفعل تفضيل من الهدى فى الظاهر ، وهو نظير العسل أحلى أم الخل ؟ وليس المقصود المفاضلة " لأن الذى يمشى مكبًا على وجهه لا شئ عنده من الاهتداء ، فهو من باب قوله تعالى : " قال رب السجن أحب إلى مما

---

[٤] البحر المحيط : ٢٩٨/٨
[١] نظم الدرر : ٨٢/٨
[٢] الكشاف : ١٣٩/٤
[٣] ينظر : روح المعانى : ٢٩/١٥

يدعوننى إليه " فى قول كثير من الأئمة . ومثل هذا لا يخلو من تهكم أو تلميح بحسب المقام . " [٤]

نموذج إنسانى واقعى :

من الأساليب التربوية عرض نماذج واقعية لمن بلغ القمة فى مكارم الأخلاق فارتفع ، ولمن يسقط فى حضيض مساوئ الأخلاق فسفل ووقع .

يعرض القرآن ذلك من خلال زوجتين لنبيين من الأنبياء فى مظنة الإيمان .

وأخريين تؤمنان فى مظنة الافتتان ، يقول القرآن : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۞ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم ١٠ : ١٢]

فى الأمثال السابقة وجدنا هيئات وصورًا ترسم أحوالاً ، ولكننا فى هذه المرة نجد الأمر يختلف من عدة جهات :

١- أن المثل هنا نموذج إنسانى متحقق .

٢- كما أنه متعلق بالمرأة وليس بالرجل .

---

[٤] التحرير والتنوير : ٤٦/١٤

٣- وفيه من الطرافة أنه جمع الكفر مع الإيمان فى مظنات غير متوقعة ، فى نفس بيت النبوة يخرج النموذج الكافر " امرأة نوح وامرأة لوط " ، وفى بيت فرعون يوجد النموذج المؤمن " وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون "

٤- والمثل هنا - بصفة عامة - جاء ليؤسس معنى عقديًا جديدًا وهو أن الأواصر لا تنفع والوشائج لا تجدى ، تفصيلاً لقوله : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ... ﴾ [الممتحنة: ٣]

يقول ابن القيم : فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو صلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال ، فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان متصلاً بالله وحده على أيدى رسله . " [1]

٥- ويلاحظ فى هذا المثل اتساقه مع طبيعة القرآن المدنى والقضايا التى يعالجها ، فمن الممكن أن ينكر فى المجتمع المؤمن الزوج المؤمن والمرأة الكافرة أو الفاسقة ، أو المرأة الصالحة والزوج الفاسق .

والمتأمل يجد أن المثل أعطانا ثلاثة نماذج نسائية مختلفة :

أولاً : نموذج المرأة الكافرة والزوج المؤمن : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠]

---

[1] إعلام الموقعين : ٢٤٣/١

" والمأثور فى تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط أنها كانت خيانة فى الدعوة ، وليست خيانة الفاحشة ، امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه ، وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهى تعلم شأنهم مع ضيوفه . " [1]

وعن ابن عباس : " لم تزن امرأة نبى قط ولا ابتلى فى نسائه بالزنا " [2]

ولم يشر القرآن فى هذا السياق لنبوة نوح أو نبوة لوط ؛ لأن المقصود هو النموذج البشرى العام ، فليس ذلك لخصوصية النبوة ، وتحقيقًا لذلك وصفهما بقوله " عبدين " ؛ لأن هذا النموذج قابل للتكرار فى كل وقت وحين.

قال الزمخشرى : " فإن قلت ما فائدة قوله " من عبادنا " ؟ قلت : لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح فى الإنسان كائنًا من كان ، وأنه وحده هو الذى يبلغ به الفوز وينال ما عند الله . قال : " عبدين من عبادنا صالحين "

فذكر النبيين : النبيين المشهورين بين العلمين بأنهما عبدان لا يكونان إلا كسائر عبادنا من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهارًا وإبانة . " [3]

قال ابن عاشور : " ومناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط دون غيرهما من قرابة الأنبياء نحو أبى إبراهيم وابن نوح – عليهما السلام ؛ لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم ، وقد تقدم ذكر أبى إبراهيم وابن نوح لتكون فى ذكرهما فائدة مستجدة .... " [4]

---

(1) فى ظلال القرآن : ٣٦٢١/٦
(2) البحر المحيط : ٢٨٩/٨
(3) الكشاف : ١٣١/٤
(4) التحرير والتنوير : ٣٧٤/١٣

وهذا بعيد لاعتماده على مقدمة غير صحيحة ، وهى أن ذكرهما لم يتقدم ؛ بل تقدم ذكرهما ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٣] ، ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٥]

وأحسن من ذلك أن يقال ما قاله يحيى بن سلام : مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم ضرب مثلاً بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران ترغيبًا فى التمسك بالطاعات والثبات على الدين . " [1]

وهو أنسب للسورة وموضوعها .

ومن بديع النظم الكريم :

قوله : " كانتا تحت عبدين " و " تحت " تبرز الهيمنة والقوة والسيطرة ، ومع ذلك خانتاهما .

وقوله : " وقيل ادخلا النار ..... " طى للزمان ، وتحقيق لما سيكون ، وكأنه قد كان ، وإخراج المستمع من حالة تلقى قصة عابرة إلى معايشة لحظة آنية ، إخراج القيامة من طور المنتظر إلى المنظور ، فكأننا نشاهد جهنم ، فتحت أبوابها ، وسمعنا الملائكة يدفعونهما إلى النار قائلين : ادخلا النار مع الداخلين .

ثانيًا: نموذج المرأة المؤمنة والزوج الكافر: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ

---

[1] البحر المحيط : ٨/ ٢٩٠

امرأة واحدة فى مملكة عريضة قوية ..... وحدها ... فى وسط ضغط المجتمع ، وضغط القصر ، وضغط الملك .... فى وسط هـذا كلـه رفعـت رأسها إلى السماء ، وحدها فى خضم هذا الكفر الطاغى .

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التى جعلتها قرينة مريم فى الذكر ..... وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة .[٢]

قوله : " امرأة فرعون " الإضـافة إلى فرعون تبرز جملة المخـاطر التى كانت تحيق بها ، والشرور المطبقة عليها ، وضراوة السلطة التى كانت تقاومها ، فهى امرأة فرعون .

ولذلك لجأت إلى الله تعالى بالدعـاء ؛ لأنها إذا كانت ضعيفة فإنها بالله قوية ، وإذا كانت مع فرعون فى خوف فهى مع الله آمنة ، وإذا كان فرعـون مظنة هلاك فإن النجاة من الله " قالـت رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين "

" طلبت من ربها القرب من رحمته ، وكان ذلك أهم عنـدها فقـدمت الظرف وهو " عندك بيتًا " ثم بينت مكان القرب فقالت : " فى الجنة " ، وقال بعض الظرفاء ، وقد سئل أين فى القرآن مثل قولهم الجار قبل الدار ؟ قال : قوله تعالى : " ابن لى عندك بيتًا فـى الجنـة " فـ " عنـدك " هـو المجاورة، و " بيتًا فى الجنة " هو الدار. " [١]

واتساقًا مع هذا المعنى ، قدمت طلب النجاة من فرعون قبل النجاة من عمله ؛ لأن أثر فرعون الشخص واضح فى كـل أعمـال الظلـم والكفـر ، ففرعون سبب والعمل مسبب .

---

[٢] ينظر : فى ظلال القرآن : ٣٦٢٢/٦

[١] البحر المحيط ٢٨٩/٨ ، ٢٩٠

ثالثًا : المرأة التي لا زوج لها : " ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ..... " الآية.

قال ابن التلمساني في شرح الشفاء لعياض : لم يذكر الله امرأة في القرآن باسمها إلا مريم للتنبيه على أنها أمة الله إبطالاً لعقائد النصارى . " [٢]

وعلة ضرب المثل بها ظاهرة في قوله : " أحصنت فرجها ونفخنا فيه من روحنا .... "

وبدأ بتحصين فرجها ردًا على اتهام اليهود من جهة ، وتوطئة للمعجزة : ميلاد عيسى من جهة أخرى .

قال ابن عاشور : " وتفريع " فنفخنا فيه من روحنا " تفريع العطية على العمل لأجله . أي جزيناها على إحصان فرجها ، أي بأن كون الله فيه نبيًا بصفة خارقة للعادة . " [٣]

وقال هنا : " فيه " وقال في الأنبياء " فيها " ؛ لأن المقصود في سورة الأنبياء ذكرها وما آل إليه أمرها حتى ظهر فيها ابنها ، وصارت هي وابنها آية ، وذلك لا يكون إلا بالنفخ في حملها وتحملها ، والاستمرار على ذلك إلى ولادتها ، فلهذا اختصت بالتأنيث .

وما في التحريم مقصور على ذكر إحصانها وتصديقها بكلمات ربها ، وكأن النفخ أصاب فرجها وهو مذكر . والمراد به فرج الجيب ، أو غيره فخصت بالتذكير "[٤]

وقوله : " كانت من القانتين " ولم يقل من القانتات جريًا على عرف اللغة من تغليب الذكور على الإناث .

---

[٢] التحرير والتنوير : ٣٧٨/٢٨

[٣] السابق : ٣٧٨/٢٨

[٤] البرهان في توجيه متشابه القرآن : أحمد بن حمزة الكرماني ، ت ح : عبدالقادر عطا ، دار الفضيلة ١٩٧٧ : صـ١٨٠

" ونكتته ههنا : " الإشارة إلى أنها فى عداد أهل الإكثار من العبـــادة ، وأن شأن ذلك يكون للرجال ؛ لأن نساء بنى إسرائيل كن معفيات من عبادات كثيرة "[1].

ألم تر أن الرجال أكمل عبادة – بصفة عامة – من النـــساء ، وعلـــى الرجال ما ليس على النساء ، من جهاد ، وجماعة ، وجمع .

وتمر النساء بأحوال أنثوية تسقط بعض الفرائض ، كالحيض والنفاس....

فكأن مريم لما كملت فى عبادتها كأنها فارقت الإناث والتحقت بالرجال الذين هم مظنة تمام العبادة ، فاستحقت جمع الذكور " وكانت من القانتين "

ومن بديع النظم الكريم اتساق المثل مع سياق السورة " فإنها سيقت فى ذكر أزواج النبى – صلى الله عليه وسلم – والتحذير من تظـــاهرهن عليـــه ، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الـــدار الآخـــرة لم ينفعهن اتـــصالهن برســـول الله – صلى الله عليه وسلم – كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لـــــوط اتصالهما بهما ، ولهـــذا إنما ضرب فى هذه الصورة مثل اتصال النكاح دون القرابة . " [2]

وإن كان ابن عطية يستبعد ذلك [3] ، بحجة أن النص للكفار .

أعمـال الكـافـريـــــن

مما يتصل بالكافرين أعمالهم التى فيها خير ، ويرجون أن تـــنفعهم ، وأموالهم التى فيها خير ، ويرجون أن تنفعهم ، وأموالهم التى ينفقون ويتمنون أن تغنى يوم القيامة عنهم .

---

[1] التحرير والتنوير : ٣٧٩/٢٨ .
[2] إعلام الموقعين : ٢٤٥/١ .
[3] ينظر : المحرر الوجيز : ٣٣٤/٥ .

ولكن هيهات هيهات ، إن الأعمال بغير إيمان لا ترفع ، والقربات بغير توحيد ترفض .

وتأتى أمثال القرآن تصور أعمال الكافرين وأموالهم كجزء متصل بالكفر نفسه .

وترينا أمثال القرآن أعمال الكافرين فى صورة حرث هلك بريح فيها صر ، أو رماد تطاير إذ اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، أو كسراب يلمع من بعيد فيغرى الظمآن حتى إذا جاءه لم يجن إلا الحسرة والخيبة .

ولنبدأ بترتيب سور القرآن الكريم ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .... ﴾ [آل عمران : ١١٦ ، ١١٧]

يوظف القرآن الكريم هذا المثل على طريقته الخاصة فى الجمع بين المتقابلين ليميز المتلقى الفرق بين الاثنين ، ويتضح الفارق بين الفريقين ليختار الأرشد ، ويترك المهلك ، وليبصر الهدى فيتبع ، والغى فيبتعد .

وفى الآية السابقة ذكر القرآن الكريم أن أهل الكتاب ليسوا سواءً فى موقفهم من القرآن ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ..... الآيات ﴾

[آل عمران : ١١٣ : ١١٥]

فلما وصف من آمن من الكفار بهذه الصفات الحسنة ، ووعدهم بهذه المكافأة الطيبة ، لما كان هذا الوعد والترغيب أتبعه بوعيد الكفار والترهيب فقال : " إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم .... "

" والمراد من الموصول إما سائر الكفار فإنهم فخروا بالأموال والأولاد حيث قالوا : نحن أكثر أموالاً وأولادًا وما نحن بمعذبين " [سبأ : ٣٥] وإما من كفر من أهل الكتاب على ما قال الرازى . [١]

والتعبير باسم الموصول لما فيه من علة الخبر وحيثية الحكم ، أى بسبب كفرهم لم تغنى عنهم أموالهم ولم تقبل أعمالهم .

واختيار " تغنى " فى هذا السياق يتسق مع أجواء الأموال وما تشعر به من غنى ، فكأنهم بأموالهم وأولادهم استغنوا عن ربهم ، فأراد الله أن يقول لهم : إن أموالكم وأولادكم لن تغنيكم ، كما أنها لن تغنى عنكم .

" وإنما خص – تعالى – الأموال والأولاد بالذكر ؛ لأن أنفع الجمادات هى الأموال ، وأنفع الحيوانات هو الولد " (١) ، " ومنها أنها زينة الحياة الدنيا ، وعظم ما تجرى إليه الآمال ، ومنها أنها ألصق النصرة بالإنسان وأيسرها ، وأن الكفار لا همة لهم إلا فيها ..... فذكر الله أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف لا غناء فيهما من عقاب الله فى الآخرة ، فإذا لم تغن هذه فغيرها من الأمور البعيدة أحرى أن لا يغنى "[٢]

" وكرر حرف النفى مع المعطوف فى قوله : " ولا أولادهم " لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم لدفع توهم ما هو متعارف من أن الأولاد لا يقعدون عن الذب عن آبائهم .

---

[١] مفاتح الغيب : ٢١٠/٨

[١] مفاتح الغيب : ٢١١/٨

[٢] المحرر الوجيز : عبدالحق بن أبى بكر الغرناطى ، ت : عبدالسلام عبدالشافى – دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، ٤٩١/١ بتصرف قليل

وتنكير " شيئًا " للتقليل[٣] جملة " وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" عطف على جملة " لن تغنى عنهم .... " وجئ بالجملة معطوفة لقصد أن يكون منصبًا عليها التأكيد بحرف " إن " فيكمل لها من أدلة تحقيق مضمونها من خمسة أدلة هى : التأكيد بـ " إن " وموقع اسم الإشارة والإخبار عنهم بأنهم أصحاب النار ، وضمير الفصل ووصف خالدون "[٤]

يزيد فى العقوبة وصفهم أنهم أصحابهم . قال البغوى : " وإنما جعلهم من أصحابهما لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يفارقونها ، كصاحب الرجل لا يفارقه "[٥]

ويأتى المثل ليكون " كالدليل لعدم إغناء الأموال ، ولعل عدم بيان إغناء الأولاد ظاهر ؛ لأنهم إن كانوا كفارًا وهو الظاهر كانوا حكمهم ، وإن كانوا مسلمين كانوا عليهم لا لهم فى الدنيا . " [١]

يريد الألوسى أن يفسر اقتصار المثل على بطلان نفع الأموال مع أنه ذكر فى الآية السابقة الأولاد مع الأموال " لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم"

لكنا إذا ذهبنا أن المقصود بهذه الأموال ما أنفقوها فى سبل الخير والبر على ما اختاره كثير من المفسرين " [٢] قلن تكون فى حاجة إلى هذا الشرح .

يقول الرازى : وحاصل المثل أن كفرهم يبطل ثواب نفقاتهم كما أن الريح الباردة تهلك الزرع . [٣]

---

[٣] التحرير والتنوير : ٦٠/٤
[٤] السابق : ٦٠/٤
[٥] تفسير البغوى : معالم التنزيل ، أبو محمد بن مسعود البغوى ، دار طيبة ، ١٤٠٩هـ ٩٤/٢ .
[١] روح المعانى : ٣٤٩/٢
[٢] ينظر : مفاتح الغيب : ٢١١/٨
[٣] مفاتح الغيب : ٢١١/٨

وابن عطية يلخص المثل فيقول : " معناه : المثال القائم فى النفوس من إنفاقهم الذى يعدونه قربة وحسنة وتحنثا ومن حبطه يوم القيامة وكونه هباءً منثورًا وذهابه كالمثال القائم فى النفوس من زرع قوم نبت واخضر وقوى الأمر عليه فهبت عليه " ريح فيها صر " محرقة فأهلكته ، فوقع التشبيه بين شيئين وشيئين : ذكر الله عز وجل أحد الشيئين المشبهين وترك ذكر الآخر ثم ذكر أحد الشيئين المشبه بهما وليس الذى يوازى المذكور الأول وترك ذكر الآخر ، ودل المذكوران على المتروكين ، وهذه غاية البلاغة ."[٤]

كأنه نحى بالتشبيه إلى الاحتباك ، وذهب البيضاوى إلى أن التشبيه مركب ، وبنى على ذلك عدم مراعاة التقابل بين صورتى المشبه والمشبه به .

قال: " وهو من التشبيه المركب ، ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه للريح دون الحرث " [٥]

ولكنه جوز مراعاة الأجزاء من خلال التقدير ، قال : " ويجوز أن يقدر كمثل مهلك ريح وهو الحرث "[٦]

وهو اختيار أبى عبدالله النسفى ، وزاد : " أو مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح "[١]

والأرجح أن التمثيل لا يشترط فيه مقابلة الأجزاء على ما اختار ابن القيم [٢] ، والعلامة ابن عاشور ، وأشار قبل ذلك الرازى إلى أن المثل على

---

[٤] المحرر الوجيز : ٤٩٥/١

[٥] أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، عبدالله بن عمر البيضاوى ٨٢/٢ ط : دار الفكر – بيروت د . ت

[٦] السابق نفسه

[١] مدارك التنزيل : أبو البركات عبدالله بن أحمد النسفى ، تح : مروان محمد الشعار ، دار النفائس ، بيروت ، ٢٠٠٥ / ١٧٥/١ .

[٢] إعلام الموقعين : ٢٤١/١ .

قسمين : ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو مقصود من الجملتين ، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين وهذا هو المسمى بالتشبيه المركب .

ومنه ما حصلت المشابهة فيه بين المقصود من الجملتين وبين أجزاء كل واحدة منها "[٣]

وجعل الأول لا يشترط فيه التقابل بين الأجزاء ، فلا يسأل عن إيلاء الريح الكاف وهى لا تقابل ما ينفقون وإنما تقابل كفرهم .

ومن راعى الإجزاء قدر على نحو ما مر .

والتعبير باسم الإشارة " هذه الحياة " لتمييزها فى أذهانهم من جهة ولتحقيرها من جهة أخرى .

" كمثل ريح فيها صر "

قال ثعلب : بدأ بالريح والمعنى على الحرث ، وهو اختيار الزمخشرى[٤]

وأفرد " ريحًا " لأنها مختصة بالعذاب ، كما أفرد فى قوله " بل هو ما استعجلتهم به ريح فيها عذاب أليم " [الأحقاف : ٢٤] ، " ولئن أرسلنا ريحًا " [الروم : ٥١] ، إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا " [القمر : ١٩] ، " كالريح العقيم " [الذاريات : ٤١] .

كما أن الجمع مختص بالرحمة " أن يرسل الرياح مبشرات .... " [الروم : ٤٦] ، " وأرسلنا الرياح لواقح .... " [الحج : ٢٢] ، " يرسل الرياح بشرًا ... " [الأعراف : ٥٧] ولذلك روى : اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا "[٥]

---

[٣] مفاتح الغيب : ٢١٢/٨ .
[٤] ينظر : الكشاف : ٤٥٧/١ .
[٥] البحر المحيط : ٤٠/٣ .

" فيها صـــر "

الصر بالكسر شدة البرد . وقيل : هو البرد ، وكذلك صرصـــر وصـــر وصلصل وصل إذا سمعت صوت الصرير .

ويقال هو من صرير الباب ، ومن الصرة وهى الضجة . قـــال عـــز وجل : " فأقبلت امرأته فى صرة " قال المفسرون : فى ضجة وصيحة .

قال ابن الأنبارى : " فى قوله تعالى : " كمثل ريح فيها صر " قـــال : فيها ثلاثة أقوال : أحدهما : فيها صر أى برد . والثـــانى : فيهـــا تـــصويت وحركة . وروى عن ابن عباس قول آخر : فيها صر ، قال فيها نار " [1]

قال ابن القيم : والأقوال الثلاثة متلازمة : فهو برد شديد محرقة بيبسة للحرث كما تحرقه النار ، وفيه صوت شديد " [2]

واتساع الكلمة لهذه المعانى الثلاثة (البرد – والصوت – والإحراق) يمكن أن يحقق مراحل الإهلاك : فهى ريحى شـــديدة البـــرودة " فأحرقتـــه " واشتعل لهيبها ، وسمع صوت لها وهى تحرق .

" واللفظة ذاتها كأنها مقذوف يلقى بعنف فيصور معناه بجرسه النفاذ " [3]

" إنها كلمة لا يسد غيرها مسدها فى المعجم بهـــذه الدلالـــة الـــصوتية الخاصة لما تحمله من وقع تصطك له الأسنان ، ويشتد معه اللسان ، فالـــصاد الصارخة مع الراء المضعفة قد ولدتا جرساً يضفى صيغة الفـــزع وصـــورة الرهبة ، فلا الدفء يستنزل ، ولا الوقاية تتجمع بما يزلزل وقعـــه كيـــان أى إنسان " [4]

---

[1] ينظر : لسان العرب مادة " صر " .
[2] إعلام الموقعين ٢٤٢/١ .
[3] فى ظلال القرآن : ٤٥١/٢ .
[4] الصورة الفنية فى المثل القرآنى : ٢٤٠ .

وعلى كل " فالمقصود من التشبيه حاصل ، سواء أكان بردًا مهلكًا ، أو حرًا محرقًا فإنه يصير مبطلاً للحرث والزرع " [٥]

ووصف الريح بأن " فيها صر " أفاد شدة برد هذه الريح ، حتى كأن جنس الصر مظروف فيها وهى تحمله إلى الحرث " [٦]

واختيار الفعل " أصاب " للتمكن أى أن الريح الباردة المهلكة تمكنت من إهلاك الزرع ، كذلك بفعل الكفر .

" والحرث شامل للزرع والثمار لأن الجميع مما يصدر عن إثارة الأرض وهى حقيقة الحرث ، ومنه الحديث : " لا زكاة إلا فى عين أو حرث أو ماشية . " [٧]

" حرث قوم ظلموا أنفسهم "

وصفهم بأنهم " ظلموا أنفسهم " تأوله جمهور المفسرين بأنه ظلم بمعاصى الله ، فعلى هذا وقع التشبيه بحرث من هذه صفته – ظلموا أنفسهم – إذ عقوبته أوخى ، وأخذ الله له أشد ، والنقمة إليه أسرع وفيه أقوى . " [١]

والفائدة فى ذكره هى أن الغرض تشبيه ما ينفقون بشئ يذهب بالكلية حتى لا يبقى منه شئ ، وحرث الكافرين الظالمين هو الذى يذهب بالكلية ، ولا يحصل منه منفعة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فأما حرث المسلم المؤمن فلا يذهب بالكلية لأنه وإن كان يذهب صورة فلا يذهب معنى ؛ لأن الله تعالى يزيد فى ثوابه لأجل وصول تلك الأحزان إليه . [٢]

---

[٥] مفاتح الغيب : ٢١٢/٨ .
[٦] التحرير والتنوير : ٦١/٤ .
[٧] المحرر الوجيز : ٤٩٥/١ .
[١] المحرر الوجيز ٤٩٥/١ .
[٢] مفاتح الغيب : ٢١٤ .

ويمكن أن يفسر " ظلموا أنفسهم " بأنهم زرعوا فى غير موضع الزرع أو فى غير وقته ؛ لأن الظلم وضع الشئ فى غير موضعه ، وعلى هذا التفسير يتأكد وجه الشبه ، فإن من زرع لا فى موضعه ولا فى وقته يضيع ، ثم إذا أصابته الريح الباردة كان أولى بأن يصير ضائعًا ، فكذا ههنا الكفار لما أتوا بالإنفاق لا فى موضعه ولا فى وقته ، ثم أصابه شؤم كفرهم امتنع أن لا يصير ضائعًا ، والله أعلم [٣].

وريح بهذه الصفة " فيها صر ... " لا شك أنها مهلكة ، ولكنه لم يكتف بالتلميح بل صرح بالهلاك فقال : " فأهلكته " تأكيدًا للمعنى .

ولما كانت العقوبة بهذا التفظيع . قال : " وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون "

هم الذين اختاروا لأنفسهم الشرود والضلال والانفلات من عصمة الحبل الممدود . فإذا ذهب عملهم كله هباء – حتى ما ينفقونه فيما ظاهره الخير – وإذا أصاب حرثهم كله الدمار فلم يغن عنهم مال ولا ولد .... فما فى هذا ظلم من الله – تعالى – لهم ؛ إنما هو ظلمهم لأنفسهم بما اختاروه لأنفسهم من تنكب وشرود . " [٤]

والمتأمل فى المثل يلحظ أن فعل " الظلم " ذكر ثلاث مرات " ظلموا أنفسهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون "

والفعل يلقى بظلاله فى هذه الأجواء ليشعر بفظاعة ما ارتكبوا وبعدل الله فى عقابه لهم .

---

[٣] ينظر : المحرر الوجيز :١/٤٩٥
[٤] فى ظلال القرآن : ٢/٤٥١

وتقديم المفعول فى قوله : " ولكن أنفسهم يظلمون " لرعاية الفواصل لا للتخصيص لأن الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول "[1]

أى لا مشاحة ولا منازعة فى المفعول حتى يفيد تقديمه الحصر " وإلا لا يتطابق الكلام ؛ لأن مقتضاه وما ظلمهم الله ولكن هم يظلمون أنفسهم لا أنهم يظلمون أنفسهم لا غيرهم وهو فى الحصر لازم .

" وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار "[2]

وفيه من المحسنات البديعية الإرصاد .

والملاحظ فى هذا المثل أنه يتطابق مع المثل الآخر فى سورة النور " والذين كفروا أعمالهم "[3]

فالمضمون فى الآيتين أن أعمال الكافرين لا تقبل ، هذه واحدة ، وأن الله يعاقبهم على كفرهم ، وتلك أخرى .

فانظر كيف عرض المعنى أكثر من مرة فى غير تكرار ممل ومعاداة تعادى إنها بلاغة القرآن .

ومنه قوله سبحانه :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ .....﴾ [سورة إبراهيم : ١٨]

يأتى هذا المثل فى سياق مناظرة الكافرين ، وبيان ما ينتظرهم من عقوبة " واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائهم جهنم .... "

وكأن سائلاً يسأل هذا حال الكافرين فما مصير أعمالهم التى تبدو خيرة، كصلة الأرحام وعتق الرقاب وقرى الضيف .... إلخ ؟

---

(1) فتح القدير : ٣٧٤/١
(2) روح المعانى : ٣٥١/٢
(3) البحث : ص

فجاء المثل القرآنى ليجيب عن هذا التساؤل:" مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد .... "

قال الشوكانى : " ضرب الله سبحانه هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار فى أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد فى يوم عاصف " [٤]

ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شئ كثير بعد تجمعه فى سرعة فائقة .

وبدأ المثل بقوله : " مثل الذين كفروا بربهم ..... "

المثل لأعمالهم ولكنه أضاف المثل للكافرين لا للأعمال ؛ ذلك لأن فى صلة الموصول " كفروا بربهم " علة المثل ، وسبب محق العمل .

ثم إنه لا فرق بين الكافر وعمله ، فعمله منه ، ويدل عليه ، ويرشد إلى باعثه ." فالأعمال التى لا تقوم على قاعدة من الإيمان ، ولا تمسكها العروة الوثقى التى تصل العمل بالباعث ، وتصل الباعث بالله مفككة كالهباء والرماد ، لا قوام لها ولا نظام . فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن باعث العمل . فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية . " [١]

بعض النحويين يقدر محذوفًا قد يكون خبرًا أو مبتدأ ، كسيبويه ، فالتقدير عنده وفيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا .... أو مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم .

---

[٤] فتح القدير : ١٠١/٣

[١] الظلال : ٢٠٩٤/٤ .

والفراء يقدر مضاف محذوف والتقدير عنده : مثل أعمال الذين كفروا .... فحذف المضاف اعتمادًا على ذكره بعد المضاف إليه وهو قوله : أعمالهم[٢]

وهذا التقدير يذهب بالتشويق ويقلل من رواء البداية ، وجمالها فى أن يبقى هكذا : " مثل الذين كفروا بربهم " لتشوق وتثير .

ثم ليكون قوله بعد ذلك " أعمالهم " بيان لمثلهم ، وإيضاح بعد إبهام ، ولذلك أرجح أن تكون " أعمالهم " بدلاً من " مثل الذين كفروا بربهم "

واختلفوا فى المراد بأعمالهم :

فمنهم من قال بأنها أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم .....

ومن من قال : إن المراد بالأعمال عبادتهم للأصنام وما تكلفون من كفرهم الذى ظنوه إيمانًا وطريقًا إلى الخلاص ... .

وثالث قال : إن المراد من الأعمال كلا القسمين. [٣]

والسياق يرجح الأول على ما يبدو . والله أعلم .

" ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المتجمع ؛ لأن الرماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعها بينهم وهو قرى الضيف حتى صارت كثرت الرماد كناية فى لسانهم عن الكرم " [١] **هذه واحدة.**

الثانية : مشهد الرماد تشتد به الريح فى يوم عاصف مشهود معهود يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشئ منها . ولا الانتفاع به أصلاً .

الثالثة : أن الرماد ما يبقى بعد احتراق الشئ ، وهو أخف من التراب فهبت الريح به أسرع وتطيره أوجز .

---

[٢] ينظر : الرازى : ١٠٦/١٩ ، ١٠٧ .
[٣] السابق نفسه .
[١] ابن عاشور : ٢١٣/١٣

الرابعة : " وفى تشبيهها بالرماد سر بديع ، وذلك للتشابه الذى بين أعمالهم وبين الرماد فى إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا ، فكانت الأعمال التى لغير الله ، وعلى غير مراده طعمة للنار ، وبها تسعر النار على أصحابها ، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارًا وعذابًا " [٢]

قوله : " اشتدت به الريح " حملته وأسرعت الذهاب به ، فاشتد من شد بمعنى عدا والباء للتعدية أو للملابسة ، ويجوز أن يكون من الشدة بمعنى القوة أى قويت بملابسة حمله . " [٣]

وأشعر أن الجار والمجرور " به " هو سبب اشتداد الريح فكأن الريح هادئة طبعًا ، ولكن الذى جعلها تشتد هو فعلها بهذا الرماد .

والمتأمل يجد ثمة فارقًا بين قوله هنا " فى يوم عاصف " وفى سورة يونس " جاءتها ريح عاصف " فالموصوف هاهنا اليوم وما فى " يونس " الريح .

وألمس نكتة فى ذلك : ففى قوله " هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف " هنا دعوة لاستحضار الموقف فى خيال المتلقى ليشعر بأنه لا مخلص له من شدته ولا منقذ من كربته إلا الله ، أما هنا فالحديث عن أعمال تذهب هباء يوم القيامة وهذا أشد ، فالفرق هائل بين يوم من أيام الدنيا وبين يوم القيامة ؛ ولذلك جاء الوصف لليوم كله لا للريح " فى يوم عاصف "

قال الطاهر : " ووصف اليوم بالعاصف مجاز عقلى ، أى عاصف ريحه كما يقال يوم ماطر أى سحابه " [٤]

---

[٢] إعلام الموقعين : ٢٢٤/١
[٣] روح المعانى : ٢٦١/٧
[٤] التحرير والتنوير : ٢١٣/١٣

وقال الشوكانى : " والعصف شدة الريح . ووصف به زمانها مبالغة كما يقال يوم حار ويوم بارد ، والبرد والحار فيها لا منها . " [٥]

ولإظهار ضعفهم وعجزهم عن الانتفاع بأعمالهم قال: "لا يقدرون مما كسبوا على شئ "

قال أبو حيان : " وفى البقرة لا يقدرون على شئ مما كسبوا . وهو" من التفنن فى الفصاحة والمغايرة فى التقديم والتأخير والمعنى واحد . " [١]

وأحسن منه ما قاله البقاعى: "ولما كان الأمر هنا متمحصًا للأعمال قدم قوله: "مما كسبوا"[٢] فلكل سياق ما يناسبه .

والجملة فذكلة التمثيل – كما قال أبوالسعود – [٣]

أو بيان لجملة التشبيه ، أى ذهبت أعمالهم سدى فلا يقدرون أن ينتفعوا بشئ منها – كما قال الطاهر ابن عاشور –[٤]

وضم " لا يقدرون " إلى " مما كسبوا " يصور حالة الحرمان مع الوجد، وتبرز الفقر رغم الكسب . مثاله من عجز أورث الضعف والفقر . " ذلك هو الضلال البعيد " .

" ذلك " الإشارة إلى ما دل عليه التمثيل أى هذا البطلان لأعمالهم وذهاب أثرها هو الضلال البعيد " [٥] ويرى الزمخشرى أن الإشارة للضلال قال : " قوله : " ذلك هو الضلال البعيد " إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن طريق الثواب " [٦]

---

[٥] فتح القدير : ١٠١/٣
[١] البحر المحيط : ٤٠٥/٥
[٢] نظم الدرر : ١٧٩/٥
[٣] إرشاد العقل السليم :
[٤] التحرير والتنوير : ٢١٣/١٣
[٥] فتح القدير : ١٠١/٣
[٦] الكشاف : ٣٧٢/٢

و " لما كان هذا خسرانا لا يمكن تداركه سماه بعيدًا " [٧] وهذا التذييل " ذلك هو الضلال البعيد " تعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير في يوم عاصف – إلى بعيد ، ثم يلتقى مع مشهد الرماد المتطاير ظل آخر فى الآية التالية التى يلتفت فيها السياق من مصائر المكذبين السابقين إلى المكذبين من قريش يهددهم بإذهابهم والإتيان بخلق جديد "[٨] يشير إلى قوله : " إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد " [إبراهيم : ١٩]

تمثيل أعمال الكافرين بالسراب والظلمات

أحيانًا لا يكتفى القرآن بذكر مثل واحد للممثل له ؛ بل يأتى باثنتين تكثيفًا للمعنى ، أو لإظهار أقسامه ، أو لتعدد الأحوال .

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۞ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [سورة النور : ٣٩ – ٤٠]

فقد ذكر سبحانه للكافرين أحوالاً وأعمالاً مثلين : مثلاً بالسراب ، ومثلاً بالظلمات المتراكمة .

وثنائية المثل من الظواهر القرانية ، فقد ضرب للمنافقين مثلين فى أول البقرة[١] ، ناريًا ومائيًا ، كما ضرب لما يقر فى القلوب من الهدى والعلم فى

---

[٧] فتح القدير : ١٠١/٣

[٨] الظلال : ٢٠٩٤/٤

[١] سورة البقرة : ١٧-٢٠

سورة الرعد[٢] ، مثلين مائيًا ونارياً[٣] ، كذلك هنا يضرب للكافرين مثلين بالسراب والظلمات .

علة الثانية :

ولما بين سبحانه بهذا المثال أنهم لم يصلوا إلى شئ غير التعب ، المثمر للعطب ، وكان هذا لا يفعله بنفسه عاقل ، ضرب مثالاً آخر بين الحامل لهم على الوقوع فى ممثول الأول ، وهو السير بغير دليل ، الموقع فى خبط العشواء كالماشى فى الظلام ، فقال عاطفًا على " كسراب " قوله : " أو " للتخيير ، أى أعمالهم لكونها لا منفعة لها كسراب ، ولكونها خالية عن نور الحق " كظلمات " أو للتنويع ، فإنها إن كانت حسنة الظاهر فكالسراب ، أو قبيحة فكالظلمات ، أو للتقسيم باعتبار وقتين كالظلمات فى الدنيا والسراب فى الآخرة .[٤]

ويقول أبو حيان : " مثل لهم ولأعمالهم مثلين ، **أحدهما** : يقتضى بطلان أعمالهم فى الآخرة ، وأنهم لا ينتفعون بها .

والثانى : يقتضى حالها فى الدنيا من ارتكابها فى الضلال والظلمة .[٥]

ترتيب المثلين :

قدم أحوال الآخرة التى هى أعظم وأهم لاتصال ذلك بما يتعلق بها من قوله سبحانه : " ليجزيهم .... " [النور : ٣٨] ثم ذكر أحوال الدنيا تتميمًا لها ، وجوز أن يعكس ذلك فيكون المراد من الأول تشبيه أعمالهم بالسراب فى الدنيا حال الموت ، ومن الثانى تشبيهها بالظلمات فى القيامة كما فى الحديث "

---

[٢] الرعد : ١١٧

[٣] ينظر : تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير ، دار نور الإسلام : ٣٠٧/٣

[٤] نظم الدرر : ٢٧٠/٥

[٥] البحر المحيط : ٤٢٣/٦

الظلم ظلمات يوم القيامة " ويكون ذلك ترقيًا مناسبًا للترتيب الوقوعى وهو بعيد . " [1]

المراد بالأعمال :

" أعمالهم " أى أعمالهم التى هى من أبواب البر كصلة الأرحام وفك العناة وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف ونحو ذلك مما لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب "[2]

ومن بديع النظم الكريم أنه بدأ بالذين كفروا لا بأعمالهم ." الذين كفروا " مبتدأ وخبره جملة " أعمالهم كسراب ..... " وجعل المسند إليه ما يدل على ذوات الكافرين ثم بنى عليه مسند إليه آخر وهو " أعمالهم " ولم يجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما فى الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معروفة ما سيذكر من شئونهم ليتقرر فى النفس كمال التقرر وليظهر أن للذين كفروا حظًا فى التمثيل بحيث لا يكون المشبه أعمالهم . وفى الإتيان بالموصول وصلته إيماء إلى وجه بناء الخبر "[3]

قوله " كسراب "

السراب ما يرى فى الفلاة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة ، فيظن أنه ماء يسرب أى يجرى [4]

واشترط فيه الفراء اللصوق فى الأرض ، وقيل هو ما ترقرق من الهواء فى الهجير فى فيافى الأرض المنبسطة ، وقيل : هو الشعاع الذى يرى نصف النهار عند اشتداد الحر فى البر يخيل للناظر أنه ماء سارب .

---

[1] روح المعانى : ٥٠٣/٩
[2] أبوالسعود : ١٨٠/٦
[3] التحرير والتنوير : ٢٥١/١٨
[4] البيضاوى ٤/ ١٩٢

قال الشاعر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كلمع سراب فى الفلا متألق[1]

لماذا اختار السراب ؟

لأن السراب يخدع صاحبه ويوهمه بغير الحق كذلك أعمال الكافرين . قال ابن عطية : " السراب ما ترقرق من الهواء فى الهجير فى فيافى الأرض المنبسطة وأوهم الناظر إليه على البعد أنه ماء ، سمى بذلك لأنه ينسرب كالماء فكذلك أعمال الكافر يظن فى دنياه أنه نافعته فإذا كان يوم القيامة لم يجدها شيئًا فهى كالسراب الذى يظنه العطشان ماء فإذا قصده وأتعب نفسه بالوصول إليه لم يجد شيئًا "[2]

وصف السراب بوصفين : بقيعة ، ليتراءى فيوهم ويخدع ، ويحسبه الظمآن ماء ليبرز شدة الاحتياج إليه . فالظمآن العطشان الشديد العطش ، وتخصيصه لتشبيه الكافر به فى شدة الخيبة عند مسيس الحاجة إليه . [3]

وتخصيص الحسبان بالظمآن به مع شموله لكل من يراه كائنًا من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه فى وجه الشبه الذى هو المطلع المطمع والمقطع المؤيس . " [4]

والحسبان : الظن على المشهور ، وفرق بينهما الراغب بأن الظن أن يخطر النقيضان بباله ويغلب أحدهما على الآخر ، والحسبان أن يحكم بأحدهما من غير أن يخطر بباله ، فيعقد عليه الأصبع ويكون بغرض أن يعتريه فيه شك [5]

---

[1] روح المعانى : ٥٠١/٩

[2] المحرر الوجيز : ١٨٧/٤ بتصرف

[3] ينظر: البيضاوى ١٩٢/٤ ، الصناعتين لأبى هلال العسكرى ٥٤٦ .

[4] أبوالسعود : ١٨١/٦

[5] مفردات غريب القرآن : مادة : حسب : ١١٧/١

اعتـــراض :

فإن قيل : قوله : " حتى إذا جاءه " يدل على كونه شيئًا وقوله : " لـــم يجده شيئًا " مناقض له ؟ قلنا : الجواب عنه من وجوه ثلاثة : الأول : المراد معناه أنه لم يجده شيئًا نافعًا ، كما يقال : فلان ما عمل شيئًا ، وإن كـــان قـــد اجتهد . والثانى : " حتى إذا جاءه " أى جاء موضع السراب لم يجد الـــسراب شيئًا فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه . والثالث : الكناية للسراب ؛ لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء ، وإذا قرب منـــه رق وانتثر وصار كالهواء . " [1]

بل من بديع النظم الكريم أنه قال (لم يجده) " وكان يمكن أن يقول : لم يجده ماء ، ولكن كلمة شئ جعلته عدمًا مطلقًا ، ثم فى ذكر ضمير السراب حيث قال لم يجده ، وكان يمكن أن يقول (لم يجد شيئًا) ، ولكـــن الـــضمير نصّ على الأمل المنشود وصيره عدمًا ، وفى ذلك إبراز للمغـــزى ، وخيبـــة الأمل ، وشئٌ آخر فى هذه الهاء هو تهيئة الكلام لقوله بعد ذلك : (ووجد الله عنده) ؛ لأن لو قال : (حتى إذا جاءه لم يجد شيئًا) لكـــان متناقـــضًا مـــع (ووجد الله عنده) " [2] ، ثم قوله : (حتى) يشير إلى ما تكبده ذلكم الظمآن من وعثاء الرحلة ، ومشقة الطريق ثم لم يجنِ أى شئ .

والمتأمل فى النظم الكريم يجد أنه بدأ بالجمع " الذين كفروا " ثم وحـــد الضمير بعد ذلك ؛ لأن الكفر جمعهم ، أما الحساب والخيبة فكل واحد مـــنهم يجد آلامها ، ويشعر بمرارة الخيبة فرديًا . يقول النسفى : " وحد بعـــد تقـــدم الجمع حملاً على كل واحد من الكفار . " [3]

---

[1] مفاتح الغيب : ٨٥٧/٢٤

[2] الإعجاز البلاغى أ . د / محمد أبو موسى ص ١٠٣ مكتبة وهبة ، ط الثانية ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م

[3] النسفى : ١٢٢/٣

وقوله تعالى : " ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب " بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط كما هو شأن الظمآن ، ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلاً . فليست الجملة معطوفة على : " لم يجده شيئًا " بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عينًا ولا أثرًا هكذا يرى أبوالسعود . " [٤]

وكذلك العلامة ابن عاشور يرى أنه من تمام التمثيل : أى لم يجد الماء ووجد فى مظنة الماء الذى ينتفع به وجد مَنْ إن أخذ بناصيته لم يفلته ، أى هو عند ظنه الفوز بمطلوبه فاجأه من يأخذه للعذاب ، وهو معنى قوله : " فوفاه حسابه . " [٥]

" ووجد الله عنده " : الله الذى كفر به وجحده ، وخاصمه وعاداه ، وجده هنالك ينتظره ! ولو وجد فى هذه المفاجأة خصمًا له من بنى البشر لروعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد ، فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار "[٦].

" ووجد الله " : أى جزاء الله ، كقوله : " يجد الله غفورًا رحيمًا " [النساء : ١١٠] أى يجد مغفرته ورحمته .

فلم يكف هذا الجاهل خيبة وكمدًا أنه لم يجد ما قصده شيئًا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى نار ، لا يفك أسيرها ، ولا يخمد سعيرها [١]

---

[٤] أبوالسعود : ١٨١/٦
[٥] التحرير والتنوير : ٢٥٣/١٨
[٦] الظلال : ٢٥١٧/٤
[١] نظم الدرر : ٢٩٦/٥٦

ويلخص المثل الزمخشرى بقوله : " شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التى يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم تخيب فى العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر ، بسراب يراه الكافر بالساهرة ، وقد غلبه العطش يوم القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه ، ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية : ٣] ، ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] [٢] وتفسير الزمخشرى للضمائر تفسير فى إطار المعنى مما جعل أبا حيان يقول : " فجعل الزمخشرى " الظمآن " هو الكافر حتى تطرد الضمائر فى " جاءه " و " لم يجده " " ووجد " و " عنده " " فوفاه " لشخص واحد ، بل وقال : فإنه وإن جعل الضمائر للظمآن لكنه جعل " الظمآن " وهو الكافر وهو تشبيه الشئ بنفسه كما قال وشبه الماء بعد الجهد بالماء " [٣]

وأجدنى مترددًا فى قبول ما ذهب إليه أبو حيان ، بل لا أجد فى كلام الزمخشرى ما يساعده عليه ، وسعدت إذ قرأت -بعد ذلك- عند الألوسى: " ورد بأن التشبيه على ما ذكر جار الله تمثيلى ، أو مقيد لا مفرق كما توهم ، فلا يلزم من اتحاد بعض المفردات فى الطرفين تشبيه الشئ بنفسه كاتحاد الفاعل فى : أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى " [٤] . يرد بذلك على أبى حيان .

" واعلم أن هذا التمثل العجيب صالح لتفريق أجزائه فى التشبيه بأن ينحل إلى تشبيهات واستعارات . فأعمال الكافرين شبيهة بالسراب فى أن لها

---

[٢] الكشاف : ٦٩/٣

[٣] البحر المحيط : ٤٢٤/٦

[٤] روح المعانى : ٥٠٢/٩ ، ٥٠٣

صورة الماء وليست بماء ، والكافر يشبه الظمآن فى الاحتياج إلى الانتفاع بعمله . ففى قوله : " يحسبه الظمآن " استعارة مصرحة ، وخيبة الكافر عند الحساب تشبه خيبة الظمآن عند مجيئه السراب ففيه استعارة مصرحة ، ومفاجأة الكافر بالأخذ والعتل من جند الله أو بتكوين الله تشبه مفاجأة من حسب أنه يبلغ الماء للشراب فبلغ إلى حيث تحقق أنه ماء فوجد عند الموضع الذى بلغه من يترصد له لأخذه أو أسره . فهنا استعارة مكنية ، إذ شبه أمر الله أو ملائكته بالعدو ورمز إلى العدو بقوله : " فوفاه حسابه " [٥]

مثل ثان : " أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج .... " .

أو للتخيير أو للتنويع أو للتقسيم [١]

وقدم أحوال الآخرة التى هى أعظم وأهم لاتصال ذلك بما يتعلق بها من قوله سبحانه : " ليجزيهم ..... " [النور : ٣٨] ثم ذكر أحوال الدنيا تتميمًا لها .

وجوز أن يعكس ذلك فيكون المراد من الأول تشبيه أعمالهم بالسراب فى الدنيا حال الموت ، ومن الثانى تشبيها بالظلمات فى القيامة كما فى الحديث : " الظلم ظلمات يوم القيامة " ويكون ذلك ترقيًا مناسبًا للترتيب الوقوعى ، وهو بعيد والأول أقرب على ما أشار إليه الألوسى . [٢] *

وأشار الرازى إلى وجه ثالث وهو أن الآية الأولى فى ذكر أعمالهم وأنهم لا يتحصلون منها على شئ ، والآية الثانية فى ذكر عقائدهم فإنها تشبه الظلمات **كما قال** " يخرجهم من الظلمات إلى النور ... " [البقرة : ٢٥٧]

---

[٥] التحرير والتنوير : ٢٥٤/١٨

[١] نظم الدرر : ٢٧٠/٥ ، البيضاوى ١٩٣/٤

[٢] روح المعانى : ٥٠٣/٩

* عن عمد كررت لحاجة السياق

أى من الكفر إلى الإيمان . يـدل عليه قوله تعالى :﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] [٣]

وابن القيم يجعل تنوع المثل اتساقًا مع تنوع المشركين ، فالمـشركون على نوعين : أحدهما من يظن أنه على شئ فيتبين له عند انكشاف الحقـائق خلاف ما كان يظنه ، وهذه حال أهل الجهل وأهل البـدع والأهـواء الـذين يظنون أنهم على هدى وعلم فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شئ .

النوع الثانى أصحاب مثل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحـق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليهم ظلمة الطبـع و ظلمة النفوس وظلمة الجهل ..."[٤]

وهذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة كما يقـال : شاهدت سواد الكفر فى وجه فلان .

والظلمات : الظلمة الشديدة . والجمع مستعمل فى لازم الكثـرة وهـو الشدة ، فالجمع كناية ؛ لأن شدة الظلمة يحصل من تظاهر عدة ظلمـات . ألا ترى أن ظلمة بين العشاءين أشد من ظلمة عقب الغروب وظلمة العشاء أشـد مما قبلها .

وضرب المثل بالظلمة والنور " وجعل الظلمات والنـور " لاسـتواء جميع الناس فى إدراكهما والشعور بهما .

وإنما جمع " الظلمات " وأفرد " النور " اتباعًا للاستعمال ؛ لأن لفـظ " الظلمات " بالجمع أخف ، ولفظ " النور " بالإفراد أخف ، ولذلك لم يرد لفظ "

---

[٣] مفاتح الغيب : ٨/٢٤

[٤] إعلام الموقعين : ٢٠٦/١ ، ٢٠٧ بتصرف

الظلمات " فى القرآن إلا جمعًا ، ولم يرد لفظ " النور " فى القرآن إلا مفردًا " [1]

وكثيرًا ما يضرب القرآن مثلاً لحالة الكافر بالظلمات :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧]

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام : ٣٩]

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم :١]

" وجمع الظلمات لتعددها وتنوعها ؛ لأن الظلمات كثيرة ، لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل ، وظله هو الظلمة ، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار "[2]

ثم اتساقًا مع المثل فمصادر الظلمات متعددة يغشاه موج من فوقه موج .....

" فى بحر لجى "

" لجى " أى ذى لج هو اللج ، إشارة إلى أنه عميق لا يدرك له قرار؛ لأن اللج معظم الماء "[3]

ويزيد فى المبالغة إضافته إلى ياء النسب (فالنسب مستعمل فى التمكن من الوصف ، **كقول أبى النجم** :

.... والدهر بالإنسان دوارى . أى دوار ، وكقولهم : رجل مشركى ، ورجل غلابى ، أى قوى الشرك وكثير الغلب . " [4]

والضمائر للواقع فى البحر وإن لم يجر ذكره لدلالة المعنى عليه . [5]

---

(١) التحرير والتنوير : ١٢٧/٧ ، ١٢٨
(٢) الكشاف : ٣/٢
(٣) نظم الدرر : ٢٧٠/٥
(٤) التحرير والتنوير : ٢٥٦/١٨
(٥) البيضاوى ١٩٣/٤

ولننظر إلى تكثيف هذه الظلمات " يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب " ومعنى : " من فوقه موج " أن الموج لا يتكسر حتى يلحقه موج آخر من فوقه ، وذلك أبقى لظلمته .

والسحاب يزيد الظلمة إظلامًا لأنه يحجب ضوء النجم والهلال .[٦]

وقوله : " من فوقه سحاب " صفة لموج الثانى : أى من فوق ذلك الموج سحاب ظلمانى ستر أضواء النجوم ، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب " [٧]

ولما كان هذا أمرًا مهولاً ، أشار إلى هوله وتصويره بقوله : " ظلمات " أى من البحر والموجين والسحاب "[١]

" بعضها فوق بعض " أى متكاثفة متراكمة ، وهذا بيان لكمال شدة الظلمات ، كما أن قوله تعالى : " نور على نور " بيان لغاية قوة النور خلا أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به ، كما يعرب عنه ما بعده "[٢]

والظاهر أن المراد تشبيه أعمال الكفرة بالظلمات المتكاثفة من غير اعتبار أجزاء فى طرفى التشبيه يعتبر تشبيه بعضها ببعض ، ومنهم من اعتبر ذلك فقال : الظلمات الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة ، والبحر اللجى صدر الكافر وقلبه ، والموج الضلال والجهالة التى قد غمرت قلبه ، والموج الثانى الفكرة المعوجة والسحاب شهوته فى الكفر وإعراضه عن الإيمان .

وقيل : الظلمات أعمال الكافر ، والبحر : هواه العميق القعر الكثير الخطر الغريق هو فيه ، والموج : ما يغشى قلبه من الجهل والغفلة . والموج

---

[٦] التحرير والتنوير : ١٨//٢٥٦
[٧] أبوالسعود : ١٨١/١ بتصرف
[١] نظم الدرر : ٢٧٠/٥
[٢] أبوالسعود : ١٨٢/٦

الثاني : ما يغشاه من شك وشبهة . والسحاب : ما يغشاه من شـــرك وحيـــرة فيمنعه من الاهتداء "[٣]

" لم يكد يراها " أى لم يقرب أن يراها فضلاً أن يراها ، كقول ذى الرمة :

إذا غير النأى المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح[٤]

والنفى هنا منصب على المقاربة لا الرؤية .

زعم الفراء والمبرد أن المعنى لم يرها إلا بعد الجهد فإنـــه قـــد جـــرى العرف أن يقال : ما كاد يفعل ولم يكد يفعل فى فعل قد فعل بجهد مع استبعاد فعله وعليه جاء قوله تعالى : " فذبحوها وما كادوا يفعلون " [البقرة : ٧١]

ومن هنا خطأ ابن شبرمة ذا الرمة بقوله :

إذا غير النأى المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح

وناداه يا أبا غيلان أراه قد برح ، ففك وسلم له ذو الرمة ذلك فغير " لم يكد " بلم يكن أو لم أجد .

والتحقيـــق : أن الذى يقتضيه لم يكد وما كان يفعل أن الفعل لم يكن من أصله ولا قارب فى الظن أن يكون ولا يشك فى هذا [١]

وفى الحواشى الشهابية أن نفى كاد على التحقيق المذكور أبلغ من نفى الفعل الداخلة عليه لأن نفى مقاربته يدل على نفيه بطريق برهانى إلا أنـــه إذا وقع فى الماضى لا ينافى ثبوته فى المستقبل ، وربما أشعر بأنـــه وقـــع بعـــد اليأس منه ، كما فى آية البقرة ، وإذا وقع فى المستقبل لا ينافى وقوعـــه فـــى الماضى فإن قامت قرينة على ثبوته فيه أشعر بأنه انتفى وأيس منه بعـــد مـــا

---

[٣] روح المعانى : ٥٠٧/٩ ، البحر المحيط : ٤٢٥/٦

[٤] البيضاوى ١٩٣/٤

[١] روح المعانى : ٥٠٥/٩ ، وانظر : الكشاف : ٦٩/٣

كان ليس كذلك كما فى هذه الآية فإنه لشدة الظلمة لا يمكنه رؤية يده التى كانت نصب عينيه[٢] .

وهذا هو الراجح عند ابن هشام[٣] .

واختيار اليد لأنها أقرب شئ إليه .

" ومن لم يجعل الله له نورًا .... " اعتراض تذييلى جئ به لتقرير ما أفاده التمثيل من كون أعمال الكفرة كما فصل ، وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره ، وإيراد الموصول للإشارة بما فى حيز الصلة إلى علة الحكم وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم أى ومن لم يشأ الله أن يهيديه لنوره الذى هو القرآن هداية خاصة مستتبعة للاهتداء حتمًا ولم يوفقه للإيمان به " فما له من نور " أى فما له هداية من أحد أصلاً . [٤]

والمتأمل فى صور أعمال الكافرين يلحظ التعدد والتنوع وفقًا لسياق كل سورة وغرضها ؛ففى (كمثل ريح فيها صر ...) نجد تصوير الجهد الضائع ، والتعب غير المثمر ، وفى (أعمالهم كرماد ...) تلمس تحقير العمل وضياعه ، وفى (كسراب بقيعة ...) نلحظ خيبة الأمل مع مسيس الحاجة ، وفى (كظلمات فى بحر لجى ...) تبرز الحالة النفسية التى يعيشها الكافر . فيا لهذا التعدد ، ويا لهذا التنوع !

---

[٢] السابق : ٥٠٥/٩

[٣] مغنى اللبيب : ١٨٣/١٨٢/٢

[٤] أبوالسعود : ١٨٧/٦

خاتمة البحث

بعد هذه الرحلة الجميلة التى قضيتها مع " صورة الكافر فى أمثال القرآن " **تبين لى :**

١- اتفقت كلمة العلماء فى أهمية الأمثال بعامة ، وأمثال القرآن بخاصة ، ولكنهم لم يتفقوا على المراد من المثل وأنواعه .

٢- الأمثال وسيلة من وسائل القرآن فى تصوير المعنى وتوضيحه ، وهى أداة من أدوات القرآن فى الدعوة إلى الله ، ترشد وتهدى ، وتقنع وتفحم ، وترغب وترهب .

٣- أحيانًا يصرح القرآن بلفظ " مثل " وأحيانًا يسبقها بـ " ضرب " ومشتقاتها ، وأحيانًا بدونها ، ورأيت أن لكل نوع سياقه ، ففى المجالات القوية الشديدة أو العنيفة حيث يراد الهزة القوية تصدر الأمثال بـ " ضرب أو ضربنا ..... " ، وللدرجة المتوسطة " مثل " ، والأخيرة بدون هذه وتلك.

٤- تنوعت الأمثال وهى تصور الكافر فتارة تبرزه منفردًا وثانية فى قران مع المؤمن ، وثالثة من خلاله عمله الذى يقدم ، وجهوده التى تضيع .

كما تنوع الغرض من المثل تنوعًا يتسق مع أهداف القرآن المكى والقرآن المدنى ، فالأول يرتكز على قضايا العقيدة وموقف الكفار منها ، والثانى يتناول بعض الظواهر التى قد تقع فى المجتمع المؤمن ، حيث يكون الزوج صالحًا وامرأته على خلافه أو العكس . كما رأينا ذلك فى سورة التحريم " ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط .... "

٥- وتبين أن السياق القرآنى قد استخدم ما يمكن تسميته " ثنائية المثل " بهدف ذكر أنواع أو إبراز أحوال ، أو حشد كبير لتكثيف المعنى كما فى سورة

النور ، فأعمال الكافرين تارة سراب يلمع ولا ينفع ، وتـارة ظلمـات بعضها فوق بعض .

٦- عناصر الصورة فى أمثال الكافرين معروفة مألوفة ، خالدة ، إنهـا مـن البيئة ، ومن مفردات الكون والطبيعة ، ثابتة لا تتغير ، صـالحة لكـل زمان ومكان ، فالكافر حين لا يتأثر يعرضه فى صورة غنم المنعوق به ، وحين يعرف ثم ينكر يعرضه فى صورة الكلب دائم اللهث .....

٧- ارتكز المثل القرآنى فى بعض الأحيان على التصوير الجزئى من خـلال المجاز اللغوي أو العقلي موظفًا فى سياقه أجمل توظيف كما رأينا فـى قوله " أو من كان ميتًا فأحييناه " وفى قوله " اشتدت به الريح فى يـوم عاصف "

٨- فى عرض صورة الكافر من خلال الموازنة بينه وبين المـؤمن اعتمـد المثل كثيرًا على الطباق أو المقابلة ليبرز الفارق بين الاثنين فيقبح الكفر وينفر منه ، ويغرى بالإيمان ويدعو إليه ، ليساعد المخاطب على حسن الاختيار .

٩- الألفاظ فى المثل القرآنى – كما هو شأن القرآن بعامة – منتقـاة بعنايـة فائقة من خلال دقتها ، والتآمها فى سياقها ، وجميل إيقاعها ، وما تحمله من ظلال نفسية وشحنات عاطفية ، تجعل كل من يسمع يفكر فى تدارك حاله ، ليترك القبيح من الكفر ، ويلحق بركب الإيمان .

١٠- البعد الدينى واضح فى أمثال القرآن ، فهى ليست تصويرًا ينتهى بالتأمل بل يبدأ به لينتهى صاحبه إلى اتخاذ موقف عملى ، ويتحرك بإيجابيـة ، فيمضى على طريق الحق ، وفى نور الإيمان .

١١- من بديع اللفظ القرآنى فى المثل الدلالة الإيحائية كما رأينا فـى مكافـأة مريم " وكانت من القانتين " فرفعها إلى مصاف الرجال الكمل " إيـذانًا

بأن وضعها فى العبادة جدًا واجتهادًا ، وعلمًا وتبصرًا ورفعة من الله لدرجتها فى أوصاف الرجال القانتين وطريقهم . " [1]

كما نلمس – من خلال الإسناد – تعليمًا رفيعًا فى الأدب مع الله ، ففى الخير " آتيناه ، آياتنا ، ولو شئنا لرفعناه .... " ، وفى غير الخير : فانسلخ ، أخلد ، اتبع هواه .إنه تهذيب وتأديب بطريقة إيحائية راقية .

---

[1] البرهان فى علوم القرآن : ٣٠٢/٣

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبوالسعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادى ، دار إحياء التراث العربى .

٢- أسرار البلاغة ، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجانى ، مكتبة القاهرة ١٣٩٩ - ١٩٧٩

٣- الإعجاز البلاغى أ . د / محمد أبو موسى مكتبة وهبة ، ط الثانية ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م

٤- إعلام الموقعين ، ابن قيم الجوزية أبوعبدالله محمد بن أبى أيوب ، ت ح : عبدالرحمن الوكيل ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤٠٩هـ

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين أبوالخير ، عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوى ط : دار الفكر - بيروت د . ت .

٦- البحر المحيط ، أبوحيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان ، دار الكتب العلمية . ط أولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١

٧- البرهان فى توجيه متشابه القرآن (أسرار القرآن الكريم) محمد بن حمزة الكرمانى ، تح : عبدالقادر عطا ، دار الفضيلة ١٩٧٧

٨- البرهان فى علوم القرآن ، بدر الدين بن محمد بن عبدالله الزركشى ، تح / محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٧

٩- التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، دار سحنون ١٩٩٧

١٠- التفسير القيم ، ابن قيم الجوزية أبو عبدالله محمد بن أبى أيوب ، جمع وتحقيق - كامل عويضة ، دار ابن لقمان ٢٠٠٦

١١- تفسير القرآن العظيم ، أبوالفداء إسماعيل بن كثير القرشى ، دار نور الإسلام - بدون

١٢- التفسير الوسيط ، محمد سيد طنطاوى .

١٣- الجامع لأحكام القرآن ، ابوعبدالله محمد بن أحمد القرطبى ، مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت – بدون
١٤- جمهرة اللغة ، لابن دريد ، ط دائرة المعارف العثمانية ، ط . أولى .
١٥- خصائص التعبير القرآنى ، عبدالعظيم المطعنى ، مكتبة وهبه ، ط . أولى ، ١٤١٣ – ١٩٩٢
١٦- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والشبع المثانى ، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسينى الألوسى ، دار الحديث ، ١٤٢٦ – ٢٠٠٥
١٧- الصناعتين ، أبوهلال الحسن بن عبدالله بن سهل ، تح : على محمد البجاوى ، ومحمد أبوالفضل إبراهيم ، ط . الحلبى ، ١٩٧١م .
١٨- الصورة الفنية فى المثل القرآنى ، محمد حسين على الصغير ، دار الرشيد ، ١٩٨١
١٩- العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدى ، تح : د/ مهدى مخزومى ، إبراهيم السامرائى ، ط . وزارة الثقافة والإعلام العراقية .
٢٠- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني طبعة : دار الفكر ، بيروت د .ت
٢١- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ، مكتبة المتنبى – بدون .
٢٢- فى ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ١٤٠٦ – ١٩٨٦
٢٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وغوامض التأويل ، أبوالقاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشرى، دار الفكر
٢٤- اللباب فى علوم الكتاب ، أبوحفص عمرو بن عادل ، تح : عادل أحمد عبدالموجود ، على محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط . أولى ، ١٤١٩ – ١٩٨١ .
٢٥- لسان العرب ، جمال الدين ابن منظور . ط : بولاق

٢٦- مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميدانى ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل - بيروت . ط ثانية ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧م

٢٧- المحرر الوجيز ، عبدالحق بن أبى بكر بن عبدالملك الغرناطى ، تح :عبدالسلاح عبدالشافى محمد - دار الكتب العلمية . بيروت . ط أولى ، ١٤٢٢ - ٢٠٠١

٢٨- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، عبدالله بن أحمد بن محمود أبو البركات النسفى ، ت ح : مروان محمد الشفار ، دار النفائس ، بيروت ٢٠٠٥

٢٩- مفاتح الغيب ، أبوعبدالله محمد بن عمر الحسن بن الحسين الرازى ، دار الفكر ، ١٤٠١ - ١٩٨١م

٣٠- مفردات غريب القرآن ، أبوالقاسم الحسين بن محمد الأصبهانى ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٠

٣١- معالم التنزيل ، أبومحمد الحسين بن مسعود البغوى ، تح : محمد عبدالله النمر ، عثمان جمعه ، سليمان مسلم الحرس ، دار طيبة ١٤٠٩هـ

٣٢- مغنى اللبيب ، ابن هشام المصرى . دار إحياء الكتب العربية .

٣٣- المنار ، السيد محمد رشيد رضا ، دار المنار ، ط ثانية ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م

٣٤- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ، إبراهيم بن عمر البقاعى ، تح : عبدالرازق غالب . دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٧١